

ليالي عاشوراء

السنة السابعة

الشيخ عايّ مسّن غلوم



ليالي عاشوراء

بقلم الشيخ
علي حسن غلوم علي

محرم ١٤٣٩ هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٧ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

هاتف: ٢٥٤٢٧٩٩٧ - ٢٥٤٢٧٦٦٧

فاكس: ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa66@yahoo.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات الكتاب

- المقدمة . بقلم د. عبد الله أكبر ٥
- ١ . الحرية الفكرية . القسم الأول ١١
- ٢ . الحرية الفكرية . القسم الثاني ٢٣
- ٣ . الإلحاد الجديد ٣٥
- ٤ . نعم، هناك إله ٤٧
- ٥ . الجهاد والقيَم ٥٩
- ٦ . انقلاب المواقف ٧١
- ٧ . مقوِّمات الجهاد ٨٥
- ٨ . فتنة الأبناء ١٠١
- ٩ . أبناء وتطلّعات ١١٧
- ١٠ . سُنَّةُ الله ١٣١



المقدمة

الحمد لله من أول الدنيا إلى فنائها ومن الآخرة إلى بقائها، الحمد لله على كل نعمة. ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله وعلى آله الأطهار المصطفين الأخيار.

مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام ومن قبلهم مسيرة آلاف الأنبياء، تدرّجوا في بناء الحضارة السماوية على الأرض، وقاموا بإثراء المنظومة المعرفية، كعقيدة التوحيد والمعاد والتركيز على القيم الأخلاقية النبيلة «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكذلك ما هو أوسع وأشمل من المفردات المذكورة في علم الأخلاق، من أجل أن نقاوم كل الانحرافات السلوكية المورثة والمستوردة، ونقف أمام كل المحاولات الجارفة.



على هذا الأساس تناول المؤلف سماحة الشيخ على حسن غلوم كعادته السنوية في العشرة الأولى من شهر محرم شخصية الإمام الحسين الشهيد عَلَيْهِ السَّلَام وكربلاء في عرضٍ للوحة عاشورائية معبرة، مزج فيها مجموعة من الألوان، مثَّلت محطات لموضوعات تُستخلص منها العبر، وكيف لا يكون الحسين كذلك وهو الشهيد الذي يتحرك في ضمير الأمة... فأينما ولَّى الإنسان فثمة كربلاء، وأي يوم يمر به فهو عاشوراء، وأي شهر يحل فيه فهو محرم، إنها معادلة القلوب المقهورة حقها، السلبية الاختيار والحرية في بناء الحضارة السماوية على الأرض.

في هذا الكتاب استطاع المؤلف أن يمزج الألوان في اللوحة العاشورائية بطريقة مغايرة عن السنوات السابقة، استطاع من خلالها أن يقرأ الحسين عَلَيْهِ السَّلَام وكربلاء بمنظار معرفي سلوكي حضاري مدني، فكانت المحطة الأولى الحرية الفكرية بقسميها الأول والثاني في الليلتين الأولى والثانية، وبخلطة ألوان عنوانها حرية الفكر والإعلام والثقافة بمفهومها المعاصر الحضاري السلوكي لا بعنوان الضلال



الفقهي، لمواجهة الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق كما كان موقف الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

أما المحطة الثانية في الليلة الثالثة والرابعة فكان مزج الألوان مُعبِّراً عن موضوعين هما الإلحاد الجديد، ثم نعم، هناك إله. حيث استطاع المؤلف أن يوضح الفرق بين الإلحاد واللا دينية والسرد التاريخي القديم والجديد بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وانتشاره عبر وسائل التواصل الإجتماعي، وكيف واجه الإمام الحسين عليه السلام الانحراف عن العقيدة وتعامل معه في اللوحة العاشورائية.

وأما الليلة الخامسة في محطة الجهاد والقيم تم تركيب الألوان وذلك بعرض رواية عطية القرظي وتلاعب الإعلام الهادم المغرض في التزييف والتحريف في المفردات. ومن ثم عرض خطبة للإمام علي عليه السلام عن مفهوم الجهاد في إكمال اللوحة العاشورائية.

أما الألوان المستخدمة في محطة انقلاب المواقف ومقومات الجهاد «عنوان الليلة السادسة والسابعة» فكانت بعرض تجربة بني إسرائيل في انتظار الفرج من خلال الآيات



القرانية ومصاديقها حول القتال وليس الاعتداء، وكيف كانت مواقف وتضحيات وإيثار أصحاب الحسين يوم عاشوراء.

أما محطة فتنة الأبناء، ومحطة أبناء وتطلعات «الليلة الثامنة والتاسعة» فقد تداخلت فيها الألوان في اللوحة العاشورائية لتعبّر عن مشاعر العلاقة الأبوية بين الأب وابنه، ومن يكون في كنفه، وذلك بعرض قتال القاسم بن الحسن عَلَيْهِ السَّلَام وبروز ابنه علي الأكبر للجهاد ودعاء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام على القوم.

«سُنَّةُ اللَّهِ» المحطة الأخيرة التي اكتملت فيها تركيبة مزج الألوان في اللوحة العاشورائية، حيث كان الانتقام الإلهي ممن خذل الحسين عَلَيْهِ السَّلَام، وَمَنْ شَارَكَ أَوْ رَضِيَ بِهَذَا الْفِعْلِ الشنيع. نعم أصبح موت الحسين علةً لحياته... والأحداث التي جرت عليه وعلى أسرته من بعده علةً لبقائه وخلوده في أمة متنامية:

كَذَبَ الْمَوْتُ فَالْحُسَيْنُ مُخَلَّدٌ

كَلَمَّا أَخْلَقَ الزَّمَانَ يَتَجَدَّدُ



وفي الختام أناشد المؤلف سماحة الشيخ علي حسن غلوم
أن يستمر في عطائه المعرفي، حيث يقع على الباحث الواعي
المطلع على أطراف المعرفة الحق الكامل في أن يسعى
لاكتشاف وطرح مواضيع تستلهم من الحسين عَلَيْهِ السَّلَام ومن
واقعة الطف المعاني الإنسانية التي وجدها غير الإسلاميين
منطلقاً إنسانياً لقضية ما، كما قال المهاتما غاندي مع
احتفاظه بعقيدته الهندوسية: (تعلمت من الحسين كيف
أكون مظلوماً فأنتصر).

والحمد لله رب العالمين

د. عبد الله أكبر



الحرية الفكرية - القسم الأول



روى الطبري عن أبي مخنف في ضمن أحداث يوم
 العاشر من المحرم أن: (شمر بن ذي الجوشن أقبل في
 نفر، نحو من عشرة من رجالة أهل الكوفة قبل منزل
 الحسين الذي فيه ثقله وعبأه فمشى نحوه فحاولوا
 بينه وبين رحله فقال الحسين: «ويلكم! إن لم يكن لكم
 دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في أمر دنياكم

أحراراً ذوي أحساب. امنعوا رحلي وأهلي من طغامكم^(١)
وجهاً لكم»^(٢).

من القضايا ذات العلاقة بالنهضة الحسينية مسألة
الحریات، وينطلق - عادةً - الخطباء والباحثون والمفكرون
من النص السابق والذي يُروى أيضاً كالتالي: (إن لم
يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في
دنياكم)^(٣).

ومن فروع مسألة الحریات، حرية الفكر والإعلام
والثقافة، وهي من دون شك من المسائل الحساسة وبالغة
الخطورة، لاسيما في العصر الحاضر بعدة لحاظات:

- ١- مسألة النشر ووصول المعلومة لم تعد تتوقف عند حد،
وصارت تخترق كل الحواجز، وتسابق الزمن.
- ٢- أصبحت القضية تمثل حاجة واقعية مع الانفتاح
الثقافي الواسع.

(١) الطَّغَامُ : أرذالُ الناس وأَوغادُهُمْ.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٣٤٤.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج٤٥، ص٥١.

٣. باتت تمثل تحدياً من التحديات التي تواجه الإسلاميين والمسلمين عموماً في مقابل أطروحات بعض المجتمعات، كالمجتمعات الديموقراطية والليبرالية.

٤. وجود عدة تجارب للإسلاميين على مستوى الحكم أو الإدارة على الأقل، الأمر الذي يستدعي دراسة الجوانب الشرعية، والفكرية، والأخلاقية، ذات العلاقة بالموضوع.

٥. معاناة الإسلاميين من بعضهم البعض في هذا المجال، وذلك بلحاظ الاختلاف المذهبي والحزبي والفكري، والتنافس القائم بينهم، ومن ثم ممارسة التضيق بصور مختلفة.

كل هذا - وغيره - يستدعي إعادة قراءة المسألة من المنظور الفقهي، مع الأخذ بعين الاعتبار الهواجس التي تحيط بالفقهاء والمفكرين المسلمين حرصاً منهم على سلامة العقيدة والفكر والثقافة والأخلاق في المجتمعات الإسلامية ولدى الأفراد، بالإضافة إلى عدم التفريط بالنصوص القرآنية والروائية التي تناولت هذا الموضوع.

فالمسألة عولجت فقهياً منذ القدم، وإن كانت المعالجة



عادة ضمن عنوان جزئي يمثل فرعاً من فروع الموضوع ككل، أعني بذلك موضوع «حفظ ونشر كتب الضلال»، الذي يشمل كتب الكفر والبدع والسحر والشعوذة والكتب المحرّفة.. إلا أنه يعكس في نهاية المطاف الاتجاه الفقهي السائد بخصوص هذه القضية بأبعادها الأكثر سعة.

ولعلنا إذا بحثنا المسألة من الناحية الفقهية ومن خلال النصوص والأدلة، وتوصلنا إلى نتيجة مفادها تحريم الحفظ والنشر، وبالتالي وضع القيود على الحرية الإعلامية والثقافية، فإننا سنبقى في معضلة كبيرة من حيث التطبيق.. لأنّ تعريف ومصاديق محور البحث - وهو عنوان الضلال - في حد ذاته ليس واضحاً تماماً، وهو ما يساعد على توظيف البعض لهذه الحالة من الضبابية ضد الآخرين بحسب أهوائه ومصالحه.

ولذا إن أردنا المحافظة على العنوان القديم للمسألة فعلينا أن نبدأ بالبحث عن تعريف واضح ودقيق لمصطلح الضلال، ثم الانطلاق بعد ذلك في البحث عن الحكم الشرعي الخاص بها.

• نماذج من التعاريف:

غالبية التعاريف التي وضعها الفقهاء ليست بجامعة ولا مانعة، وبتعبير آخر هي تعاريف مطاطة، قابلة لأن تتحوّل إلى نقطة لبروز الاختلاف عند التطبيق العملي للحكم.

فعندما يُعرّف أحد الفقهاء أن الضلال هو: (كلّ ما خالف الحقّ واقعاً)، سنبقى في حيرة من أمرنا، لصعوبة تحديد ما هو الحق واقعاً في كثير من القضايا الدينية وغير الدينية. فالغالبية العظمى من المسائل الدينية هي اجتهادية، سواء في عالم الفقه أو التفسير أو التاريخ أو المعارف الإسلامية وغير ذلك.

ولو أخذنا مفردة الفقه فقط، لوجدنا - بحسب أحد الفقهاء المعاصرين - أن ٦٪ منها تمثل الضروريات، وبقية المسائل هي اجتهادية، قابلة للتغيير بحسب الاجتهاد.

بالطبع هذا لا يعني أنه لا توجد موارد هي حق واضح بالنسبة إلينا، فأنا كمسلم تكون مسألة توحيد الله ﷻ بالنسبة لي هي من الحق واقعاً، ولذا فإنّ المؤلفات التي



تُتكر وجود الله هي كتب ضلال... ولكن المسألة ليست هكذا دائماً، لاسيما بلحاظ كثرة التفرعات الخاصة بتفاصيل المعارف الدينية، والروايات، والأحكام الشرعية، والأحداث التاريخية، وغيرها؟

كما أنّ الأمثلة التي تُضرب عادة عند طرح المسألة فقهيّاً ولتوضيح المراد إنما تكون لكتب وعناوين من قبيل التوراة المحرفة، وهو ما لا يساعد على تشخيص الموارد التي يحтар فيها الإنسان، أهي من مصاديق كتب الضلال أم لا.

ولذا وجدنا عالماً إمامياً تقيّاً يعتبر أن الكتاب الفلاني من كتب الضلال والانحراف، بينما لا يتردد الآخر في اعتباره كتاب هداية، ومعرفة، وعقيدة، وتربية، وأخلاق، وتركية للنفس... وكتب العرفان والفلسفة خيرُ مثالٍ على ذلك.

بل إننا نجد في بعض المقاطع التاريخية الإسلامية حدّية في التعاطي مع هذه المسألة إلى درجة الإفتاء بتحريم مجرّد النظر في كتب علم الكلام، حتى قال أحد فقهاء أهل السنة: (ولا يجوز النظر في كتب أهل الكتاب نصّاً.. ولا

النظر في كتب أهل البدع، ولا النظر في الكتب المشتملة على الحقّ والباطل، ولا روايتها؛ لما في ذلك من ضرر إفساد العقائد^(١). وهو ما جرّ أيضاً إلى إحراق هذه الكتب، وكتب الفلسفة وغيرهما.

وهكذا فإنّ التعريف اللغوي لكلمة الضلال لا يُسعدنا أيضاً، فابن منظور على سبيل المثال قال: (الضَّلَالُ والضَّالَّةُ: ضِدُّ الْهُدَى وَالرَّشَادِ)^(٢)، وهذا - كما هو واضح - لا يُفيدنا بشيء. لأننا سنعود ونتساءل: وما هو الهدى والرشاد؟

وحتى لو لجأنا إلى المرادفات اللغوية من قبيل التيه والحيرة وانحراف الطريق، فكلها ستُبقي المفهوم والتطبيقات محلاً للاختلاف، بل ووسيلة لكي يرمي كل فريق الآخر بهذه التهمة.

ولذا قد يكون من الأنسب أن نتجاوز العنوان القديم للمسألة، وهو «حفظ ونشر كتب الضلال»، وننتقل من خلال عنوان آخر من قبيل «حرية الإعلام الفكري والثقافي».

(١) البهوتي: كشف القناع، ج١، ص٤٣٤.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة ضلل.



• أدلة وردود:

بالطبع لست هنا في وارد استقصاء النصوص والأدلة والبحث فيها بشكل تفصيلي، فهذا ليس محله، ولكن أود أن تكون لنا إطلالة عامة على بعضها تدعيماً للفكرة التي نتحدث عنها.

فقد تمسك أصحاب الرأي المشهور بدلالات نصوص عديدة من بينها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(١)، والآية واحدة من أدلة القول بحرمة حفظ ونشر كتب الضلال، وبالعنوان البديل «حرية الإعلام الفكري والثقافي».

وهكذا تمسكوا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٢)، مما يدل على وجوب اجتناب ما هو من القول الزور، وإن كان بصيغة مكتوبة، مما يستدعي القول بعدم السماح لحرية الإعلام الفكري والثقافي.

(١) سورة لقمان: ٦.

(٢) سورة الحج: ٣٠.

وهكذا نجد أن الله عَزَّوَجَلَّ ينهى عن الإعانة على الإثم والعدوان في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١)، والقول بحرية الإعلام الفكري والثقافي يعد نوعاً من الإعانة على ذلك.

ولكن عند التحقيق في هذه الآيات الشريفة يمكننا أن نصل إلى نتيجة مفادها أنها:

١- إما أن نتحدث عن حكم الساعي لإضلال الناس بإنتاج ما هو ضلال أو باطل، والدفاع عنه، وتقويته، ودعمه، عن نية وقصد وعلم بكونه ضلالاً أو باطلاً، وعن المصير الأخرى الذي ينتظر مثل هذا الشخص.

٢- أو عن الإعانة على ما يُعتبر فعلاً من الإثم والعدوان.. وهذا لا يشمل كل ما يُطرح في أجواء الحرية الفكرية والثقافية... وأبسط مثال على ذلك ما يُعتبر من صور الاختلاف الاجتهادي في التفسير أو الفقه أو الفلسفة أو علم الكلام أو التاريخ أو غير ذلك.



وكوني أختلف في وجهة نظري مع ما يطرحه الآخر، لا يعني بالضرورة أن ما يطرحه باطل وضلال حتماً، وأن ما أطرحه هو الحق المحض.. فكيف يكون السماح بالطرح والنشر وأمثال ذلك من الإعانة على الإثم والعدوان، ليكون مشمولاً بالنهي الوارد في الآية؟

وأما بعض التصرفات من قبيل منع التداول أو مصادرة الأعمال أو حرقها فلم يتعرض لها القرآن الكريم، ولم يشرعنها.

• السلوك الأموي:

في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: (روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علماً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليهم زياد ابن سمية وضم

إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون ^(١) وصلبهم على جذوع النخل وطرفهم ^(٢) وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة! ^(٣).

لقد لجأ الأمويون إلى سياسة تكميم الأفواه وفرض القيود على مفردة من المفردات المتمثلة في ذكر فضائل علي عليه السلام وأهل بيته لأنهم كانوا عاجزين عن مواجهة إقبال الناس وحبهم لعلي وأهل بيته إلا من خلال هذه الوسيلة، وباستعمال أسلوب العصا والجزرة، ترهيباً وترغيباً، فهل يُراد لنا أن نسلك ذات السبيل في تعاملنا مع ما يخالف متبنياتنا؟ ستكون لنا وقفة مجددة مع هذا الموضوع ومعالجة مجموعة من الأحاديث، ومن ثم الوصول إلى الفكرة الإجمالية حول الموقف الذي نختاره في هذا الإطار.

(١) سَمَلَ عَيْنُهُ : فَقَّأَهَا.

(٢) لعل المعنى أنه قطع أطرافهم، أو أبعدهم عن المدن.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤.



الحرية الفكرية - القسم الثاني



ذكرتُ في الليلة الماضية أن الفقهاء تناولوا منذ القدم جانباً من موضوع حرية الإعلام الفكري والثقافي تحت عنوان حفظ ونشر كتب الضلال، وأن الأدلة القرآنية المقدمة لم تساعد على القول بالمنع المطلق. ولنتناول الآن ما جاء في الروايات التي استُند إليها في المطلب.

أُحصيت الروايات التي لها علاقة مباشرة بالموضوع



فكانت أربع روايات فقط، ولم يصح منها من الناحية السندية سوى رواية واحدة، وهي الرواية التالية:

في الكافي عن أبي عبيدة الحذاء، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: (مَنْ عَلَّمَ بَابَ هَدَى فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهِ وَلَا يَنْقُصُ أَوْلَئِكَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ عَلَّمَ بَابَ ضَلَالٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارٍ مِنْ عَمَلٍ بِهِ، وَلَا يَنْقُصُ أَوْلَئِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً) ^(١).

وهي لا تدل على المطلوب، فهي تبين لنا حرمة تعليم الضلال، وأما ضرورة مصادرة كتب الضلال، أو منع أصحابها من أن تكون لهم حريتهم في القول، أو حرمة حفظ كتب الضلال ونحو ذلك، فلا دلالة فيها عليها.

ولو أردنا أن نأخذ بكل هذه الروايات - بغض النظر عن أساسيتها - فسنصل إلى نتيجة مفادها حرمة الدعوة أو الترويج للضلال، بحيث يُخشى حقاً نتيجة ذلك إضلال الناس عن كليات الدين وأساسيات الإسلام، كأصل التوحيد وأصل المعاد، لا أكثر.

(١) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٥.

• غياب الأسئلة والمواقف الحادة:

ثم لو كانت المسألة تتجه - شرعاً - نحو منع حرية الإعلام الفكري والثقافي، لوجدنا أسئلة متكررة، وحالات متعددة يظهر من خلالها أن النبي ﷺ وأصحابه، وأئمة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم كانوا يتعاملون مع هذا الموضوع بالصورة المدّعاة، لاسيما بلحاظ أن حركة التأليف والترجمة والنسخ والتكثير كانت قائمة على قدم وساق على عهد الأئمة، وما أكثر ما صدر في تلك الفترة من مؤلفات مثّلت الاتجاهات الكلامية والفلسفية والثقافية والحديثية والتاريخية المختلفة. فلماذا لا نجد أسئلة تتناول حكم شراء تلك الكتب أو استنساخها أو اقتنائها أو لزوم إتلافها أو مصادرتها ونحو ذلك؟

ولماذا لا نجد رواية تتحدث عن لزوم سجن أو معاقبة مؤلفيها أو مترجميها أو ناسخيها أو أمناء المكتبات العامة وأمثالهم؟

ولماذا لم نجد في سيرة النبي ﷺ مورداً أمر فيه بإحراق كتب أهل الكتاب ومدوناتهم، مع أنه تغلب عليهم



في أكثر من مشهد تاريخي عندما استدعت الأمور المواجهة
بين الطرفين؟

ولماذا نجد أئمتنا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بَمَنْ فِيهِمْ مَنْ كانت بيده
السلطة والقوة - ينحون منحى مجالسة أصحاب الاتجاهات
الدينية والمذهبية والفكرية والفلسفية المختلفة - بما فيهم
الزنادقة - فيدخلون معهم في حوارات ومناظرات، ولا
نجدهم يأمرّون أو يحرّضون على تدابير إقصائية معينة؟

فقد اكتفى الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ - على سبيل المثال -
بمناظرة مَنْ كان يدعوهم المأمون العباسي إلى مجالسته
من أهل الأديان والمذاهب والاتجاهات المختلفة، ولم
يمارس صلاحياته التنفيذية في التضييق عليهم عملياً، أو
على الأقل بتحريض المأمون عليهم ليمنعهم بالقوة، بعد أن
استطاع التغلب عليهم في تلك المناظرات المتعددة؟

ولماذا لا نجد في الروايات موقفاً واضحاً وحاداً من
الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في مواجهة حركة الترجمة من اللغات العالمية
إلى اللغة العربية في مجال الفلسفة والأدب والعرفان
وسواها، وفي مواجهة مَنْ يقف وراءها؟

• صورة بشعة :

ولنا أن نتخيل كيف يكون الحال - في العالم الإسلامي - لو أن أتباع كل مذهب وطريقة ومجتهد صارت بيدهم القوة، ولو جزئياً، فمارسوا دورهم في منع وإتلاف وتقييد تداول مصادر المعرفة الخاصة بمن يخالفهم، ثم ضعفوا وتغلّبَت الفئة الأخرى فمارست ذات الدور بحق الفئة الأولى وهكذا.. ماذا سيتبقى في أيدينا من مصادر الفكر والثقافة والمعرفة؟ نعم، عندما مورس هذا الأمر جزئياً في بعض فترات التاريخ الإسلامي كانت النتيجة ضياع قرابة ثمانية ملايين كتاب من مصنفات العالم الإسلامي بحسب مدير إدارة المكتبات العامة في البحرين د. منصور سرحان!

حكّم بنو عمّار طرابلس الشام في أواسط القرن الهجري الخامس لمدة ٤٠ سنة - وكانوا من الإمامية - فأسسوا مكتبة ضخمة فُتحت أبوابها لكل قارئ ومتحدث ودارس دون استثناء. تم فيها جمع الكتب والمخطوطات النادرة، وكانت الكتب في معظمها مجلدة تجليداً فاخراً، ومزخرفة بالذهب والفضة، وقد قُدرت مقتنياتها بثلاثة ملايين كتاب، وكان لها



أكثر من ١٨٠ ناسخاً يتناوبون العمل بالمكتبة ليلاً ونهاراً. ولما سيطر الصليبيون على طرابلس، دخل القس الكونت «برترام سنت جيل» المكتبة، وأمر بإحراقها بكل ما فيها!

وقبل ذلك أسّس «سابور بن أردشير» «ت ٤١٦هـ» وزير بهاء الدولة البويهية مكتبةً حملت اسم «خزانة الكتب» و«دار العلم»، واشتملت على أكثر من مائة ألف كتاب، وقدمت خدماتها للجميع على مدى سبعين سنة. ولما غزا السلاجقة بغداد، دفعهم التعصب المذهبي إلى إحراقها عام ٤٥٠هـ.

وهكذا كان مصير مخازن كتب الدولة الفاطمية بمصر عند سقوطها، والتي وصفها المقرئزي المؤرخ «ت ٨٤٥هـ» بأنها كانت من عجائب الدنيا، وأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، وكان مصيرها الإحراق والإتلاف والإلقاء في النهر... والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

• أسلوب العاجز:

نعم، هذا أسلوب العاجز حين لا يتمكن من مواجهة ما في هذه المصادر المعرفية، فيجد أن أيسر وسيلة لذلك

تتلخص في الإتلاف أو الإقصاء أو التضييق. روى الزبير بن بكار أن سليمان بن عبد الملك في زمان ولايته للعهد مر بالمدينة حاجاً، وأمر أبان بن عثمان بن عفان أن يكتب له سيرة النبي ﷺ ومغازيه، فقال أبان: (هي عندي، قد أخذتها مُصْحَحة عَمَّنْ أَثِقَ بِهِ. فأمر بنسخها، وألقى فيها إلى عشرة من الكتّاب، فكتبوها في رقٍّ. فلما صارت إليه، فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبتين^(١) وذكر الأنصار في بدر. فقال: ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل، فإمّا أن يكون أهل بيتي غَمَصُوا عليهم^(٢)، وإمّا أن يكونوا ليس هكذا. فقال أبان بن عثمان: أيّها الأمير، لا يَمْنَعُنَا ما صنعوا بالشهيد المظلوم^(٣) من خذلانه أن نقول بالحق: هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا. قال: ما حاجتي إلى أن أنسخ ذاك حتّى أذكره لأمير المؤمنين، لعلّه يخالفه. فأمر بذلك الكتاب فخرّق. وقال: أسأل أمير المؤمنين إذا رجعت فإن يوافق، فما أيسر نسخه. فرجع سليمان بن

(١) بيعتا العقبة الأولى والثانية.

(٢) غَمَصَ عَلَيْهِ قَوْلًا قَالَهُ : عَابَهُ عَلَيْهِ. وَلَا تَغْمَصُ عَلَيَّ : لَا تَكْذِبْ.

(٣) أي الخليفة عثمان بن عفان.



عبد الملك، فأخبر عبد الملك بالذي كان من قول أبان، فقال عبد الملك: وما حجّتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل؟^(١) تُعرّف أهل الشام أموراً لا نريد أن يعرفوها. قال سليمان: فلذلك يا أمير المؤمنين أمرت بتخريق ما كنت نسخته حتّى أستطلع رأي أمير المؤمنين، فصوّب رأيه^(٢).

مجموع ما سبق بيّن لنا أن المعيار هو عدم إضلال الإنسان للآخرين عن علم وعمد، وعدم الترويج للضلال عن أساسيات الدين، كأصل الإيمان بالتوحيد والنبوة، دون سواها، وأما الموقف الإقصائي والإتلاف لمصادر المعرفة التي نختلف معها فلا نملك دليلاً عليه، بل القرائن تدل على خلاف ذلك. (ولعلّ ثقافة القمع هذه جاءت من الإرث المظلم للدول التي مرّت على تاريخ المسلمين وعُرفت بالظلم والقمع والقهر وكمّ الأفواه وغير ذلك، ككثير من حقب الدولة الأمويّة والعباسيّة وغيرهما)^(٣).

(١) ابن بكار: الموفقيات، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) حب الله: دراسات في الفقه الإسلامي المعاصر، ج ٥، ص ٢٧٣. ومجمل ما طرحته في المحاضرتين مستقى من بحث قيّم قدّمه سماحته في هذا الباب.

• أفضل سبيل:

وختاماً يمكن أن نقول أن السبيل الأفضل للتعامل مع الإعلام الفكري والثقافي الذي نختلف معه إنما يكون عبر استخدام سياسة ثقافية استراتيجية تتلخص فيما يلي:

١. القيام بنهضة شاملة في المراكز الدينية والمعاهد والحوارات العلميّة، بهدف إعداد كادر علمي متمكّن من الدراسات المعاصرة والقضايا الفكرية العصرية، وتوزيع أدوار هذا الكادر على مختلف المجالات الإعلاميّة كالتأليف والصحافة والإعلام المرئي والمسموع ووسائل التواصل الاجتماعي وغير ذلك.

٢. تربية العلماء والرساليين على الهدوء النفسي، والتخلّي عن الانفعال والتوتر، وترك الخطابات المتشنّجة، واستبدال ذلك بالأساليب الهادئة والموضوعية، والاستعاضة عن ردود الفعل الانفعالية تجاه الرأي الآخر بالتأمّل والتفكير فيه، ثمّ نقده على فرض الاختلاف معه. ولنتعلم أن الاعتراف بالآخر لا يعني تصحيح فكره، بقدر ما يعني أنّه موجود قائم يمارس فعل البحث، وأنّ له الحقّ في ذلك، وأنّ المطلوب منّي هو



الدفاع عن فكري بامتلاك الحجج الأقوى والوسائل الأكثر تطوراً منه في التأثير.

٣. الترويج لاستخدام المنطق العلمي بدلاً عن المنطق المنتصر للذات على كل حال، والمنطق المؤدلج مسبقاً، والتعقيم على عيوبنا وعلى حسنات الآخر، وعرض الآخر مشوّهاً، وتبرير أخطائنا وتبسيطها، وعدم الاعتراف بالحق، والكيل بمكيالين.

٤. الابتعاد عن السجلات الجدلية العاطفية قدر الإمكان، والاعتماد بدلاً عن ذلك على المنطق البرهاني القائم على النقد وتقديم الحجة.

• موقفان متضادّان:

وهكذا كان موقف الإمام الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم، موقف الناقد للحكم الأموي والقائم على تقديم الدليل والحجة في بيان ما هو الحق وما هو الباطل، بينما كان موقف أعدائه السعي نحو استعمال القوة والعنف والإقصاء وإخماد الصوت.



روى الطبري أنه: (لما دنا منه القوم عاد براحلته فركبها ثم نادى بأعلى صوته، بصوت عال دعاء يُسمع جُلُّ الناس: أيها الناس اسمعوا قلوبي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لَحَقَّ لَكُمْ عَلَيَّ وحتى أعتذر إليكم من مَقدمي عليكم، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عُذْرِي وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي وَأَعْطَيْتُمُونِي النِّصْفَ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ، ولم يكن لكم عليَّ سبيل. وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تُعْطُوا النِّصْفَ من أنفسكم، ﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾^(١)، ﴿إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾^(٢).(^(٣))

فماذا كان موقف القوم منه عَلَيْهِ السَّلَام؟ لقد كان موقفهم معبراً عن أسلوب العاجز الضعيف الذي يخاف مواجهة الحجة بالحجة، والمنطق بالمنطق، فاستعاضوا عن ذلك بسفك الدم الحرام لعلهم يُسكتون كلمة الحق ويطفئوا نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

(١) سورة يونس: ٧١.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٦.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٣٢٢.

الإلحاد الجديد

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

استعمل القرآن الكريم المصدر «إلحاد» وفعله الرباعي «ألحد» بالاشتقاق في ستة موارد، من بينها هذه الآية

(١) سورة فصلت: ٤٠.

الشريفة، وجاءت بصيغة «يُلْحِدُونَ»، «إِلْحَادًا»، و«مُلْتَحِدًا».

والمعنى اللغوي للإلحاد: الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، ولذا يُقال: (أَلْحَدَ السَّهْمُ عَنِ الْمِثْقَالِ: مَالَ وَعَدَلَ عَنْهُ)، ويقال: (اللُّحْدُ وَاللُّحْدُ: أَيِ الشَّقُّ الَّذِي يَكُونُ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ مَوْضِعَ الْمَيِّتِ) ^(١) لَأَنَّهُ قَدْ أُمِيلُ عَنِ وَسْطِ الْقَبْرِ إِلَى جَانِبِهِ.

وقد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة باشتقاقاتها في المعنى اللغوي، فالآية السابقة على سبيل المثال تتحدث عن مصير الذين يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، أي يميلون عن الدلائل والبراهين التكوينية والآيات القرآنية النازلة بالحُجَجِ الظاهرة، فلا يهتدون بها أو ينكرونها أو لا يعيرونها اهتماماً.

وهكذا عندما نأتي إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ^(٢).

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة لحد.

(٢) سورة الحج: ٢٥.



فالآية تتحدث عن مصير الكفار الذين كانوا يمنعون الناس عن الدخول في الإسلام، ويعيقون وصول المسلمين إلى المسجد الحرام، في الوقت الذي جعل الله بيته الحرام مأوى وغاية للجميع، لأهل مكة، وللوافدين عليها.

وقد اعتبرت الآية السابقة أن كل من يمارس ظلماً - ومن صور هذا السلوك الصادر عن الكفار - فإنما ينحرف ويميل عن الغاية التشريعية لوضع البيت الحرام، والحج والعمرة، وتحريم منطقة الحرم المكي.. هذا معنى الإلحاد في هذه الآية، وهو المعنى اللغوي.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

فالآية تتضمن نهياً عن اتباع الذين يميلون ويبتعدون عن الحقيقة والصواب وجادة الحق حين ينسبون لله بعض صفات مخلوقاته من الخواص المادية، أو الصفات القبيحة، أو ينسبون إلى غير الله ما يختص به عَزَّوَجَلَّ.



وهكذا بالنسبة إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾^(١).

فقد كانوا يميلون عن الحقيقة المتمثلة في كون القرآن عربياً، ويدّعون أن النبي ﷺ قد تعلم على يد شخص نصراني، وهم يعلمون أن ذلك النصراني لم يكن عربي اللسان، على خلاف القرآن.

ومن هنا قيل عن الذي يُنكر وجود الله عَزَّوَجَلَّ بأنه مُلحد، ويُطَلَق على متبناه هذا عنوان الإلحاد، لأنه مال وانحرف عن الفطرة، وعن تعاليم الرسالات.

ففطرة الإنسان تؤكد على وجود الله ووحدانيته: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ ولماذا أودع الله هذه الفطرة في الإنسان؟ ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي كي لا تقولوا يوم القيامة لم تصلنا الرسل أو لم يكونوا مُقنعين وبالتالي ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ



أَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ﴿فَقَدْ وَرَثْنَا هَذَا عَنْهُمْ،
ومن طبيعة الإنسان تقديس الموروث ﴿أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ﴾^(١). فهو سعي منهم للتخلص من المسؤولية، إلا
أن المحاولة ستبوء بالفشل.

وهكذا كانت أول وأهم رسالة لكل الرسل على مدى
التاريخ: تأكيد وجود الله عَزَّوَجَلَّ وإثبات وحدانيته.

• الإلحاد عبر التاريخ:

والإلحاد ليس بالأمر الجديد، وآخر موجاته العاتية
كانت مع الزخم الشيوعي الذي اجتاح المجتمعات البشرية
المختلفة، ولكنه سرعان ما انحسر لعدة أسباب، أهمها أن
الشيوعية بإلحادها خالفت الفطرة الإنسانية.. وما كان هكذا
فهو سيحمل في داخله عوامل انهياره. وبعد الحادي عشر من
سبتمبر ٢٠٠١ برزت بوضوح حركة الملحدين الجدد، وصار
لها امتداد في الوسط الإسلامي في الشرق والغرب.

وإذا كنا نتحدث عن الإلحاد في العالم الإسلامي، فإن
الواقع أن رصد الحالات المنتشرة بدقة في أوساط الشباب

(١) سورة الأعراف: ١٧٢-١٧٣.

لا تقودنا دائماً إلى وجود إلحاد حقيقي لديهم، بل الأمر مردّد أيضاً بين كثافة الإشكالات على مجموعة من التشريعات والنصوص والخطابات الدينية، وبين اللادينية.

والفرق بين الإلحاد واللا دينية هو أن الفرد في الحالة الأولى يسعى إلى إنكار وجود الله، وأما في الثانية، فهو يكفر بالأديان مع إيمانه بوجود الخالق.

• من أهم العوامل:

وعلى كل، فإنّ من أهم عوامل بروزها:

١. النشاط التكفيري الإرهابي بصوره المرعبة والمخزية، والذي ألصق بالإسلام من جديد تهمّة الانتشار بالسيف والنار، والإسلام من ذلك براء. هذه التهمة التي ردها العلماء والمفكرون المسلمون على مدى أكثر من قرن من الزمان، وبالأدلة والحجج القوية، فإذا بجهودهم تنهار من خلال واقع ظلامي فرضه تكفيريو العصر الذين تلبّسوا بالإسلام، وهم لا يفقهون منه شيئاً.

تماماً كما وصف النبي ﷺ أسلافهم حيث قال: (يقرءون

القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يَمْرُقون من الإسلام كما يَمْرُقُ السهمُ من الرمية^(١).

٢. طغيان أو انكشاف حقيقة الخطاب الديني السطحي والساذج والخرافي، مع ضعف وقلة الخطاب الإسلامي المنطقي والمعتدل.

وللأسف فإن موسم محرم في كل عام، والذي استطاع في وقتٍ ما أن يكون منبر الوعي والثقافة والأدب وتهذيب النفس والسلوك، قد تحوّل في كثير من الحالات إلى موسم للمغالاة ونشر الخرافة والأساطير والأحلام والأحاديث الموضوعية والممارسات التي لم ينزل الله بها من سلطان!

٣. اتساع وسهولة التواصل والاطلاع على المضامين الإلحادية عبر الفيديو ومواقع الحوار والكتب الإلكترونية وأمثال ذلك من وسائل المعلومات والاتصالات.

٤. فقدان النموذج الإسلامي على مستوى الدولة أو الحزب أو الفرد والذي يُثبت مصداقية الإسلام في أطروحاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتنمية وغير ذلك،

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، ح ٥٦٢٨.



ولاسيما مع فشل تجارب الكثير من الإسلاميين الذين خاضوا التجربة السياسية. فلا يكفي أن يتغنى المسلمون بمجموعة من النظريات الأخلاقية والتشريعية والروحية، بل هم مطالبون بتقديم النموذج الصالح المتحقق على الأرض ولو على مستوى الأفراد.

أليست شخصية المسلم المتدين اليوم هي شخصية الإنسان القلق والمتوتر والمنغلق على نفسه.. الإنسان العدواني والفوضوي وغير المنضبط بالقوانين؟ الإنسان المستهلك وغير المنتج ولا المبدع؟

ومع عقد المقارنات على مستوى النماذج الواقعية تتحطم صورة التدين عند مجاميع من شبابنا وتدفعهم إلى الإلحاد.

٥. الميل إلى الانحلال الأخلاقي، لاسيما بلحاظ ضخامة حجم ما يُبث ويمكن الوصول إليه أو الحصول عليه عبر الشبكة العنكبوتية ووسائل التواصل الاجتماعي، مع تيسر السفر أيضاً، واستسلام الكثير من المجتمعات الإسلامية لمظاهر ما كان لها أن تتواجد علناً في الماضي، أو كانت



موجودة ولكن كانت معيبة مخزية، يُعاقب عليها المجتمع قبل القضاء والجهات الرسمية.

وأما اليوم أصبحت مقبولة، بل وهناك ضغوط دولية من أجل شرعنتها والاعتراف بها.. وأوضح مثال على ذلك الشذوذ الجنسي، وما يُطلق عليه بالجنس الثالث والرابع وأمثال ذلك. ومن الواضح أن الشاب الذي يريد الدخول في هذا العالم بقوة وبعيداً عن الإحساس باللوم المستمر نتيجة الازدواجية بين التدين وارتكاب المعصية، فإن من الأنسب بالنسبة إليه أن يقول بالإلحاد كمبرر لإراحة النفس من اللوم. وقد تكون الحالة معكوسة، فإن الإسراف في المعاصي قد يؤدي إلى فساد العقيدة.

٦. الانتقام أو الثأر للنفس والتعطش لأي شكل من أشكال الحرية والتمرد على المجتمع أو الواقع الذي يعيشه الشاب نتيجة تجارب مرة في البيئة التي عاش فيها طفولته وشبابه.

٧. ردة فعل لأزمات عديدة وحادة في حياة الشاب، لا تتفرج ولا يُستجاب فيها الدعاء.

٨. التباهي بالعصرنة.

كانت تلك مجموعة من أهم أسباب الدفع بالشباب المسلم إلى الإلحاد أو اللادينية أو اتخاذ الموقف السلبي والمتشكك من الإسلام والأديان ككل.

ويفترض بموسم محرم أن يكون من أفضل المناسبات لإطلاق حملات للتعريف بالإسلام بصورته الناصعة الخالية من كل التشويهات والتراكمات الناتجة عن سلوكيات الخوارج التكفيريين، وعن تحريفات الزنادقة والقصاصين ومسلمة الأحبار والرهبان، ومخططات الأمويين، بما يرد الشبهات، ويفند الإشكالات التي يتمسك بها أولئك الشباب.

• الأمويون والنزعة الإلحادية :

وقد كتب الباحث المصري «أحمد عبد العال رشدي» سلسلة مقالات تحت عنوان «النزعة الإلحادية عند خلفاء بني أمية» ثبّت فيها مجموعة من الشواهد على الدور الأموي فيما ذكرناه. قال: (فاق الوليد بن يزيد خلفاء الدولة الأموية كافة، فسقًا ومجونًا وعكوفًا على الخمر، حيث بويع بالخلافة وهو سكران... وتميز عنهم أيضًا في الكشف عن نزعته الإلحادية بغير تحفظ، بل كان يجاهر بتلك النزعة،

كما كان صادقاً مع نفسه، حين يقول في شعره:
 تَلَعَّبَ بِالْخِلَافَةِ هَاشِمِيٌّ بلا وحي أتاه ولا كتاب
 فقل لله يَمْنَعُنِي طَعَامِي وقل لله يَمْنَعُنِي شَرَابِي

ثم تحدث الكاتب عن جرأة الوليد حين أجبره عمه هشام على الحج، قال: (خطر له في مرة حين أشار عليه عمه هشام بحج بيت الله، عله يكون رادعاً للوليد عن فسقه ومجونه، فلما عزم الوليد الحج اصطحب معه بعض ندمائه وبعض المسكرات وآلات الملاهي وغير ذلك، واصطنع قبة على قدر سطح الكعبة ليعقد مجلس لهو فوق قبة الكعبة ويشرب الخمر، فلما وصل إلى مكة هاب من الناس أن يفعل ما كان قد عزم عليه)^(١).

وكان من بركات نهضة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن عرّت هذا الواقع الأموي، وجرّأت الناس على قول الحق، والوقوف أمام مشروعهم التدميري للإسلام فكراً وشرعيةً وأخلاقاً.. حتى تهاوت أركان تلك الدولة وزالت.. ولكن يبقى أن ندرك أنّها قد خلّفت من ورائها إرثاً ضخماً على مستوى النصوص

والمشاهد التاريخية والتربية المنحرفة التي تناقلتها الأجيال على أنها من صميم الإسلام، بل وقدّمتها في أحيان كثيرة على كتاب الله، فأولّته، ونسخت أحكامه، وشوّهت مفاهيمه، فصار نتاج ذلك إما إسلامٌ يمثل أقصى صور التطرف والعنف، فولّد لنا الإرهابيين، أو إسلامٌ ممسوخٌ دفع الشباب للتبرؤ منه والنحو منحى الإلحاد واللا دينية.



نعم.. هناك إله

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ، قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ



أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾.

تركزت جهود المرسلين - بحسب ما بلغنا من خلال القرآن الكريم - على نفي الشرك، وليس مواجهة الإلحاد.. وحتى الآية السابقة التي قد يبدو للبعض أنها تتحدث عن مواجهة الإلحاد بلحاظ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هي في الواقع في معرض مواجهة الشرك بلحاظ نهاية الآية: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

فالكفر الذي تحدثت عنه الآية الشريفة ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ليس الإلحاد وعدم وجود الخالق، بل عدم الإيمان بأن الله هو مدبر شؤون الكون المختلفة، ونسبة ذلك إلى الآلهة. ومن هنا فإن من يريد مواجهة الإلحاد يحتاج إلى معالجة الإشكالات التي يطرحها الملحدون بطريقة خاصة.. كما أن من يريد مواجهة اللادينية يحتاج إلى معالجات أخرى مختلفة عنها.

وقد يُستدل على وجود الملحدين على عهد النبي ﷺ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ... قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

إلا أن دلالة ذلك غير واضحة، فالآية ترد مقولتهم بأن الزمن هو الذي يترك تأثيره على الإنسان فيموت، إنكاراً منهم للمعاد في الآخرة.. ولا شك أن المشركين كانوا يُنكرون المعاد مع إيمانهم بالله. أي إنهم كانوا يقولون بأن الله هو الخالق، وأنه فوّض تدبير شؤون الكون المختلفة إلى الآلهة، وأن الموت يأتي كجزء من طبيعة خلقه الإنسان ككبر سنه، أو إصابته بمرض مميت وأمثال ذلك.

ففي تصورهم أن الإنسان - بعد وجوده - يخرج عن نطاق الإرادة الإلهية، ولا يغدو لله عَزَّوَجَلَّ أي شأن به. فجاءت الآيات لترد عليهم هذا الادعاء، ولتوضح لهم أن الخالق عَزَّوَجَلَّ هو واهب الحياة، وأن الإنسان يبقى تحت الإرادة الإلهية، ثم

يأتي الموت بإرادة الله أيضاً، ثم تأتي الحياة الآخرة ضمن التخطيط الإلهي للخلق والحياة والممات والحساب والثواب والعقاب.

وكون جهود المرسلين منصبة على مواجهة الشرك لا الإلحاد أمر ملفت للنظر.. فهو يدل على أن مسألة الإلحاد وإن عُرِفَت في التاريخ، ولكن يبدو أنها كانت حالات فردية أو ضعيفة الوجود.

• هل الإلحاد تحرير من الخرافة؟

وقد يقال أن جهل الإنسان هو الذي كان يدفعه عبر التاريخ للإيمان بوجود الإله أو الآلهة، وأنه عندما تقدّم علمياً استطاع أن «يحرر نفسه من هذه الخرافة»، لأن العلم فسّر له الوجود دون حاجة إلى نسبة ذلك إلى خالق ومدبّر. وفي هذا الكلام مغالطة كبيرة، وتلاعب بالألفاظ.

أولاً: نسبة الجهل إلى الإنسان عبر التاريخ كلام غير دقيق، فقد زحرت الحضارات الإنسانية المختلفة بالفلاسفة والمفكرين، وتركوا أثراً عديدة تؤكد عمق أسئلتهم وإجاباتهم وأطروحاتهم.

ثانياً: اعتبار أن التقدم العلمي المعاصر هو الذي كشف للإنسان صحة الإلحاد، ادّعاء واهن.

• تجربة الفيلسوف أنطوني فلو:

تعالوا معاً إلى تجربة الفيلسوف البريطاني «أنطوني جيرارد نيوتن فلو» «ت ٢٠١٠م» الذي كان ملحداً، واستمر لخمسعين عاماً كأحد أهم منظّري الإلحاد في العالم، وألّف العديد من الكتب في هذا الإطار، وكان يقول: (ينبغي للمرء أن يفترض الإلحاد حتى يظهر دليل على وجود الله). أي أن المؤمنين بوجود الإله هم المطالبون بالدليل، وأما الملحد فلا.

في يناير ٢٠٠٤ شارك «فلو» في مناظرة فلسفية أُجريت بجامعة كاليفورنيا، ويبدو أنها كانت المنطلق بالنسبة إليه ليعيد التفكير في مقولته، بلحاظ بعض الاعتبارات الفلسفية والعلمية. وبعد عدة محادثات مع خصمه في تلك المناظرة، أخبره «فلو» أنه يفكر في أن يصبح مؤمناً، معتبراً أن الإلحاد بالنسبة إليه أصبح في نقطة توتر مع عدة علامات استفهام كبرى.



وفي مقابلة أجريت معه لاحقاً ونُشرت في «ديسمبر» من ذلك العام، أعلن «فلو» الذي أصبح في الحادية والثمانين من عمره، أنه لم يعد ملحداً، بل أصبح يؤمن بوجود الإله الخالق.

والآن فلنلاحظ ماذا قال في تلك المقابلة: (الحجج الأكثر إثارة للإعجاب لوجود الله هي تلك التي تدعمها الاكتشافات العلمية الحديثة، وأن حجة التصميم الذكي أقوى بشكل كبير عما كانت عليه عندما التقاها للمرة الأولى)^(١).

وهكذا أصدر كتاباً بعنوان: «هنالك إله»، وتم تصميم غلافه بحيث يكشف عن هذا التحول، إذ شُطِبَ على كلمة (NO) واستعيظ عنها بحرف (A)، ليصبح العنوان: (There is A God) بدلاً من (There is No God).

بالطبع تعرض الرجل إلى حملة تشهير ضخمة من قبل المواقع الإلحادية في العالم، حيث شكّل تحوُّله هذا صدمة قوية بالنسبة إليهم، لاسيما بلحاظ وزنه العلمي، ولأنه كان أحد المدافعين الشرسين عن الإلحاد. ويبدو أن أحد أسباب

(١) أنطوني-فلو. <https://ar.wikipedia.org/wiki/فلو>



تمسكه بالإلحاد في القسم الأعظم من حياته: الصورة التي قُدِّم فيها الله في الفكر المسيحي، وذلك - أولاً - من خلال ما مارسه الكنيسة في القرون الوسطى باسم المسيح ضمن محاكم التفتيش وقيامها باضطهاد العلماء والمفكرين وحرقتهم هم أحياء، كما راح ضحية ذلك عشرات الآلاف من غير الكاثوليك بتهمة الانتماء إلى دين آخر أو الإيمان بمذهب مغاير، وثانياً للصورة المشوَّهة إلى حد كبير لما له علاقة بالإسلام على مستوى الفكر والتشريعات والتاريخ.

ولذا قال: (أنا أفكر في إله يختلف كثيراً عن إله المسيحية، وبعيداً جداً عن إله الإسلام، لأن الإثنين يُصَوَّران على حد سواء كما لو أنهم طغاة قاهرون شرقيون، كصدام حسين)^(١).

• تجربة الدكتور كولنز:

التجربة الثانية التي تُفند الادعاء بأن الاكتشافات العلمية والتطور العلمي الهائل الذي بَلَغته البشرية اليوم تؤدي إلى تبني الإلحاد، هي تجربة العالم الأمريكي «فرانسيس كولنز»

(١) أنطوني. فلو/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/فلو>

الذي كان خلال العقد الأخير من القرن العشرين مدير مشروع اكتشاف الجينوم البشري، كما كان باحثاً مساعداً في اكتشاف الأسس الوراثية الخاصة بالتليف المراري وأمراض أخرى.

في شبابه وأثناء دراسته الجامعية في تخصص الكيمياء تحوّل من اللاأدرية والتشكيك في وجود الله إلى الإلحاد، ولكنه بعد أن التحق بكلية الطب عاد ليتقبّل فكرة وجود الله انطلاقاً من العلم.

ويهمّني هنا أن أنقل مقطعاً مما ذكره في مقدمة كتابه «لغة الإله»، للتأكيد على أن العلم يقود إلى الإيمان وليس العكس.. قال: (كقائد للمشروع الدولي للجينوم البشري، حيث عملت لأكثر من ١٠ سنوات للكشف عن تسلسل الحمض النووي، وقفّت إلى جانب الرئيس بيل كلنتون في الغرفة الشرقية للبيت الأبيض.... قال كلنتون: «من دون أدنى شك، هذه أهم وأروع خريطة تم صنعها من قبل الإنسان». ولكن الجانب الذي جذب انتباه الرأي العام في خطابه هو القفز من الجانب العلمي إلى الجانب الروحي،



حيث قال: «اليوم، بدأنا نفهم اللغة التي خلق الله بها الحياة. بدأنا نتعرّف بإعجاب على تعقيد وجمال ودهشة الهدية المقدّسة لله»^(١).

ثم علّق كولينز على ذلك قائلاً: (هل صُدمت - وأنا العلم المدرب - من هذه الإشارة الدينية الصارخة لزعيم العالم الحر في هذه اللحظة؟ هل شعرت بالخرج أو طأطأت رأسي بحياء؟ لا، على الإطلاق. في الواقع لقد عملتُ عن قرب مع كاتب خطابات الرئيس لأيام متواصلة قبل هذا الإعلان، وقد وافقت تماماً على هذه الفقرة. عندما جاء دوري للحديث عبّرتُ عن هذا الشعور: «إنه يوم سعيد للعالم ومدعاة للتواضع من قبلي، فقد أمسكنا باللمحة الأولى من كتابنا، الذي كان في السابق معروفاً من قبل الله فحسب»^(٢).

ثم قال جملة رائعة بتواضع العلماء وبخشوع المؤمنين: (ما الذي كان يحدث هنا؟ لماذا شعر رئيس الولايات

(١) كولنز: لغة الإله، ص ٥-٦.

(٢) كولنز: لغة الإله، ص ٦.



المتحدة ومعه عالم عند إعلانهم عن إنجاز علمي في علم الأحياء والطب بأن عليهم ربط ذلك بالله؟ أليست الرؤيتان الكونيتان العلمية والروحية متناقضتين؟ أو لم يكن من الأفضل أن يتجنبّا الظهور معاً في الغرفة الشرقية للبيت الأبيض؟ ما هي الأسباب التي تدفع للحيث عن الله في كلا الخطابين؟ هل كل ذلك شعر؟ نفاق؟ هل هي محاولة ساخرة للحصول على تعاطف من الموحّدين؟ أو محاولة لتحديد أولئك الذين قد ينتقدون هذه الدراسة للجينوم البشري باعتبارها اختزال للجنس البشري إلى مجرد آلة؟ لا، ليس بالنسبة لي. على العكس من ذلك فالتعرّف على تسلسل الجينوم البشري والكشف عن أهم النصوص على الإطلاق كان إنجازاً علمياً صادمًا وفي الوقت نفسه مناسبة للتعبّد^(١).

ومن المناسب أن أنبّه إلى أن المؤلف في كتابه هذا لم يكتف بالاستعانة والحديث عن الدلائل العلمية على وجود الله، بل واعتمد بشكل كبير على دليل وجود البعد الأخلاقي

(١) كولنز: لغة الإله، ص ٦-٧.

لدى الإنسان في إثبات وجوده عَزَّوَجَلَّ. فامتلاك الإنسان لما سُمِّيَ بـ «الحس الحدسي للتفريق بين الخطأ والصواب»، أو بتعبير آخر «القانون الأخلاقي» بحسب الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانت» «ت ١٨٠٤م»، يُعدُّ دليلاً آخر على وجود الخالق، لأن الوجود بحسب الملحدين مادي بحت، ولذا قالوا: ليس هناك شر ولا خير في أعمال الإنسان. ولو كان كذلك فلماذا يوجد حس أخلاقي في الوجود المادي، ونحن نعلم أن الأخلاق أمر معنوي؟ فنحن نجد أن الإنسان - في وجدانه - يحكم على الأمور ويميّز بينها، فهذا شر وذاك خير، وهذا خطأ وذاك صواب.. إذاً لابد من وجود خالق زرع في الإنسان هذا الحس الأخلاقي.

• جرعات وقائية :

وكما نحتاج إلى جرعات وقائية من بعض الأوبئة عند انتشارها. فكذلك شبابنا اليوم بحاجة إلى جرعات وقائية من الإشكالات التي صارت تملأ الفضاء المعرفي، وتمس إيمانهم بشكل مباشر.. في الله.. في النبوة.. في القرآن.. في التشريعات السماوية.. وغير ذلك. وهناك مسؤولية



كبيرة تقع على عاتقهم في الإقبال على المعرفة، والتحصين الذاتي، وملاحقة الشبهات، وفتح الحوارات.

وهذا في حد ذاته يتطلّب منهم شيئاً من التضحية على حساب الترفيه والراحة والاسترخاء واللعب مما ينغمس فيه كثير من أبناء هذا الجيل إلى المستوى الذي ينسون فيه عنوان المسؤولية في الحياة.

إلا أن القضية تتطلّب مثل هذا العناء ومثل هذه التضحية، لأنها مسألة الهوية التي لوضاعت ضاع كل شيء معها.

ومن هنا لم يتوانَ الحسين عليه السلام من التضحية بنفسه وبأقرب الناس إليه وأحبّهم إلى قلبه الشريف من أجل المبادئ التي آمن بها، والقيم التي حملها وسعى إلى أن تكون هي عنوان الحياة الكريمة في الدنيا والآخرة.



الجهاد والقيم

كُتِبَ التاريخ والتفسير والحديث مليئة بروايات تخص الجهاد وقصص الحروب والمعارك التي دارت في العهد النبوي أو بعد ذلك، وهي بحاجة إلى وقفة تحقيقية وبحثية جادة وقائمة على أسس علمية ومنطقية.

فعلى سبيل المثال، عندما نجد أهل الحديث والمؤرخين يعتمدون على رواية عطية القُرظي في معرفة تفاصيل أحداث

غزوة بي قريظة، فإننا سنصل إلى صورة بشعة تشمئز منها النفوس، استغلها المستشرقون لهدم صورة الإسلام والتعريض بأحكامه وتشريعاته وأخلاقياته، كما أصبحت في صفحات الإنترنت مادة دسمة للملحدين واللا دينيين لإثارة الشبهات حول النظرة إلى الإسلام.

ففي سنن الترمذي ومصادر أخرى كثيرة عن عطية القرظي قال: (عُرِضْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، فَكَانَ مَنْ أُنبِتَ قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِيَ سَبِيلُهُ) ^(١). وفي المصنف للصنعاني: (فَقُرِّبَ لِأَقْتَلِ فَاَنْتَزَعَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ إِزَارِي، فَأَرُونِي لَمْ أُنْبِتِ الشَّعْرَ فَأَلْقَيْتُ فِي السَّبِي) ^(٢).

ولذا قيل: (محمد يقوم بمذبحة في بني قريظة، يُعرض عليه الأطفال، فيكشف عوراتهم ويتأكد إن كان شعر العانة أنبت أم لا، فإن أنبت الشعر ذبح محمدُ الطفل!) ^(٣).

هذا الافتراء قدّمه عطية على طبق من ذهب لكل من

(١) الترمذي: السنن، ح ١٥٨٤.

(٢) الصنعاني: المصنف، ج ١٠، ص ١٧٩.

(٣) موقع «كشف الإسلام» على شبكة الإنترنت.

يريد الطعن في الإسلام، وللأسف فقد صُحِّحت رواياته، وأخذها المسلمون مصدراً للإفتاء حول التعامل في مثل هذه الحالات.

وقد كتب المستشرق اليهودي «إسرائيل ولفنسون» Israel Wolfensohn في كتابه «تاريخ اليهود في بلاد العرب»: (قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في يثرب، وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج، منذ الساعات الأولى لمجاورتهم لهم في يثرب وقد بذلت في هذا السبيل جهوداً عظيمة في فترات مختلفة، ولم توفَّق حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة، فحققت آمالهم وأطماعهم، في وقت كانت خامدة فيهم تلك الآمال.. ولاشك أن اليهود لم يكونوا ينظرون إلى هذه الخيانة من حلفائهم بني الأوس، ولا إلى غدر سعد بن معاذ بهم، ولم يُنَجِّهم كما نجَّى عبدالله بن أبي حلفاء من بني قينقاع)^(١).

(١) لاحظ هذا الخبث في تحريف الحقائق، إذ على العكس من ذلك روى المؤرخون كيف حاول الأوسيون التدخل لمنع إعدام حلفائهم وأصدقائهم القدامى من اليهود في هذا المشهد.

ثم سعى الكاتب إلى تعظيم موقف اليهود الذين نقضوا الميثاق فقال: (وكان بنو قريظة طوال الليل قبل إعدامهم، يقرؤون الزبور ويناقشون في شؤون الدين، الإسرائيلي.. وقد اقترح كعب بن أسد زعيم بني قريظة على أبناء جلدته قبل خروجهم من أطمهم أن يعتنقوا الإسلام فيأمنوا على دمائهم وأموالهم ونسائهم، فقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، هذه الجمل تدل على رسوخ الديانة في نفوس بني قريظة، وأنهم ما كانوا ليعبأوا بالموت في سبيل التمسك بدينهم، والمحافظة على عقائدهم)^(١).

• فرية عطية القُرَظي:

وهكذا كان على ما يبدو منطلق عطية القُرَظي في ما ذكر، العداء للإسلام والحقد الذي احتقن في صدره وقد رأى هزيمة قومه في تلك الغزوة بعد أن خانوا المواثيق القائمة بينهم وبين النبي، وأعانوا الأحزاب في غزوتهم سنة ٥ للهجرة، وأرسلوا رجالهم لاقتحام حصون المدينة

(١) ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٤٩-١٥٠.



حيث يتجمع الأطفال والنساء والعجزة بينما كان المقاتلون منشغلين بمواجهة الأحزاب الغزاة بعيداً عنهم عند الخندق. ولولا حنكة النبي في إرسال قوة عسكرية تطوف حول الحصون مشعلة النيران ومنادية بأعلى أصواتها بالتكبير، لكان قد حدث ما لا يُحمد عُقباه.

هذه الخيانة من بني قريظة دفعت النبي لحصارهم، فرفضوا الاستسلام، وقاتلوا من وراء حصونهم حتى اضطروا إلى الاستسلام، فأمر النبي ﷺ بقتل المقاتلين منهم جزاءً لخيانتهم وإصرارهم على القتال، وعدم رضوخهم لنداءات الاستسلام على مدى أسابيع من الحصار.

وقد قال عز وجل: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾^(١).

ونجح بعض مسلمة بني قريظة كعطية القرظي، والآخر محمد بن كعب القرظي الذي كان حفيداً لأحد أسرى بني قريظة، أن يُقحما الصور الفظيعة من مخيلتهم في حقيقة

ما جرى في ذلك اليوم. وبالمناسبة فقد تخصص عطية القرظي بعد استقراره في الكوفة في تفسير القرآن، وصار يروي عن النبي ﷺ، وعَلِمَ الله وحده ما أدخل في كتب المسلمين من أساطيره ومروياته التي شوّه من خلالها سيرة النبي ﷺ ووجه الإسلام.

وإذ روى عطية تلك القصة، فقد تحدث محمد بن كعب القرظي عن قتل المُنبِتَيْن إلى الليل بعد كشف عوراتهم! قال: (قُتِلُوا إِلَى أَنْ غَابَ الشَّفَقُ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمُ التُّرَابَ فِي الْخَنْدَقِ. وَكَانَ مِنْ شُكِّ فِيهِ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ بَلَغَ نَظْرُ إِلَى مُؤْتَزَرِهِ، إِنْ كَانَ أَنْبَتَ قُتِلَ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَنْبِتَ طُرِحَ فِي السَّبْيِ) ^(١).

• وثيقة المدينة :

والواقع أن الخيانة العظمى التي قامت على يد بني قريظة تستدعي العقوبة الشديدة ولو وصلت إلى حد الإعدام، وهو أمر تُقَرُّه الأنظمة والقوانين المعاصرة، كما أن نص العهد الذي تم بين النبي واليهود عند هجرته إلى المدينة تضمّن ما يدل على ذلك، حيث كان من بنوده أن: (لليهود دينهم وللمسلمين

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٢٠٥.



دينهم، موالهيم وأنفسهم، إلا من ظل، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يشرب... وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم^(١).

بل إن في التوراة الحاضرة ما يتوافق مع قتل الذكور جميعاً بحسب شريعة اليهود، فقد جاء فيها: (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسألك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما)^(٢).

(١) حازم عوض: من رسائل الرسول، ص ٣٦.

(٢) الكتاب المقدس: سفر التثنية، الإصحاح ٢٠، ١٠-١٦.

ولكن الكلام في الإعدام الجماعي وبالصورة التي روي أنها شملت كل ذكر بالغ، وقد تراوح عددهم ما بين ٤٠٠ و ٩٠٠ رجل بحسب بعض الروايات، ليشمل حتى غير المقاتلين الناكثين للعهد، وهو ما يخالف ما عُهد من سيرة النبي ﷺ، فضلاً عن الصورة التي تشمئز لها النفوس السليمة في طريقة كشف العورات.

ويبدو أنه قد تم تضخيم الرقم ليخدم غايات عطية وأمثاله، وأن الرقم الحقيقي هو ما جاء في رواية لابن زنجويه، قال: (عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَدَا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَقَضَى بِأَنْ يُقْتَلَ رِجَالُهُمْ، وَتُقَسَّمْ ذَرَارِيُّهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا) ^(١).

ويمكن للمتتبع أن يجد في كتب السيرة النبوية موارد عديدة خالف فيها الرواة بكل وضوح ما نصَّ عليه القرآن الكريم في وصفه لحدث ما، وفي هذا جرأة ما بعدها جرأة، وإنما شجّع عليها أحياناً الابتعاد عن محاولة فهم آيات القرآن

(١) ابن زنجويه: الأموال، ح ٣٥٩.

الكريم، والاقتصار على تلاوة الآيات، أو تقديم الرواية على الآية وتأويلها بها، وغير ذلك.

• إعلام مغرض:

وتُعتبر قضية بني قريظة نموذجاً من نماذج ما جاء في السيرة النبوية الشريفة مما يحتاج إلى التحقيق والتدقيق والعرض على القرآن الكريم وعلى المعايير التي سنتحدث عنها في بحث لاحق كي نتحمل مسؤوليتنا في عرض الإسلام والدفاع عنه، وإعادة الرونق إلى عنوان «الجهاد» «والمجاهدين» الذي تعرّض للكثير من التشويه على يد الإعلام الغربي وبعض الإعلام العربي الخاضع له، ومن خلال الذرائع التي قدّمها إليهم التكفيريون لجهلهم، ووحشيّتهم المفرطة، وتلاعب الأيدي الاستكبارية والمخابراتية الخبيثة بهم.

ولربما كانت واحدة من غايات تلك الأيدي ووسائل الإعلام أن تخمد لدى المسلمين كل جذوة عزة وقوة وانتفاضة يقفون من خلالها في مواجهة مخططاتهم الاستعمارية، وأغراض الصهاينة التوسعية، ولا يخفى ما



الليد الصهيونية الطولى فى عالم الإعلام من دور. وشتان بين مفهوم الجهاد عند التكفيريين وفيما تقدمه وسائل الإعلام الاستكبارية وأذانبها وبين الجهاد الذي نُعَنُونُ به النبي ﷺ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فى نصوص الزيارة حيث نكرر بشكل دائم: (أشهد أنك قد أقمّت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وجاهدت فى سبيل الله حتى أتاكَ اليقين)^(١).

وحقيقة هذا العنوان هو ما وصفه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لَخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدَرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ، وَجَنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمَلَهُ الْبَلَاءُ، وَدَيَّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاعَةِ)^(٢) وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيمَ الْخُسْفِ، وَمُنِعَ النُّصْفَ)^(٣)، لا السلوكيات الإجرامية والشاذة التي تكمن وراءها غايات شيطانية ألبست ثوب

(١).....

(٢) القماعة: الذل.

(٣) ابن زنجويه: الأموال، ح ٣٥٩.

الإسلام ومنهاج النبوة وأمثال ذلك من عناوين براءة خُذع بها البسطاء والجهلة، ونفخ فيها الإعلام الطاغوتي وأذياله، فحول جهاد العزة والفخار والكرامة والإباء إلى عنوان للإرهاب والجريمة والوحشية والعدوان على الأبرياء.

مَن أراد أن يفهم الجهاد حق الفهم فعليه أن يقرأ السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم.. ومن أراد أن يفهم الجهاد حق الفهم فعليه أن يقرأ سيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام.. ومَن أراد أن يفهم الجهاد حق الفهم فعليه أن يدرس النهضة الحسينية بكل مشاهداتها، إذ كانت مصداقاً حقيقياً لكل الشعارات التي أطلقها الحسين عليه السلام، واستحقت بذلك أن تخلد في التاريخ إلى حيث يشاء الله عز وجل.

ومن تلك المشاهد ما قام به مسلم بن عقيل حين حوَّسِر وقوتل في الكوفة وعرض عليه محمد بن الأشعث الأمان فقال: أَقْسَمْتُ لَا أَقْتُلُ إِلَّا حُرّاً وَإِنْ رَأَيْتُ الْمَوْتَ شَيْئاً نَكَرْتُ أَكْرَهُ أَنْ أُخْدَعَ أَوْ أُغْرَأَ كُلَّ امْرِئٍ يَوْمًا يَلَاقِي شَرًّا أَضْرِبُكُمْ وَلَا أَخَافُ ضَرْباً ضَرَبَ غَلَامٍ قَطُّ لَمْ يَفِرَّا

فضربوه بالسهم والأحجار حتى عيي واستند حائطاً
فقال: (ما لكم ترموني بالأحجار كما تُرمى الكفار، وأنا
من أهل بيت الأنبياء الأبرار، ألا ترعون حقَّ رسول الله في
ذريّته؟ فقال ابن الأشعث: لا تقتل نفسك وأنت في ذمتي،
قال : أوُسروبي طاقة، لا والله، لا يكون ذلك أبداً^(١) .

وهكذا استمر مسلم في القتال إلى أن طعن من خلفه
فسقط عن فرسه وأسر، وقُدِّم إلى ابن زياد الذي أمر أن
يصعدوا به فوق القصر ويضربوا عنقه.. إنا لله وإنا إليه
راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.



(١) ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ٩٤.

انقلاب المواقف

قال جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَضْرِيحًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (١).

هذه الآية القرآنية تحذّر ضمناً من أن نغفل عن حقيقة

أن مجرد الانتماء إلى جهة، وانتظار الفرج، وطلب المدد من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا يعني أن الإنسان سيكون من أنصار الحق وأهله إذا ما استجيب الدعاء وحانت ساعة الحقيقة.

• تجربة بني إسرائيل:

بنو إسرائيل - قبل ثلاثة آلاف سنة - عاشوا ظروفًا صعبة وتفرقًا واقتتالًا داخليًا وتحزبًا للأعداء من حولهم، فتوجهوا بالدعاء بالفرج، وبالطلب من نبيهم صموئيل بأن يبعث الله القائد المخلص الذي يُنجيهم من الأوضاع المأساوية التي كانوا عليها.

واستجاب الله لدعائهم وطلبهم، قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

هنا قد يسعد الإنسان بهذا المشهد، لأن الناس توجهوا إلى الله ودعوه، وإلى نبيهم فطلبوا منه.. ولكن لاحظ كيف كان رد ذلك النبي الكريم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟﴾

هكذا يجب أن نكون، أن لا نستغرق في الظاهر بل نبحث في العمق، ونتساءل: أنحن صادقون؟

وجاء جوابهم مليئاً بالاستغراب: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾^(١)؟ أي سؤال هذا يا نبي الله ونحن ندعو ونبكي ونتضرع ونطالب بتعجيل الفرج ونعاهد بأننا سنقاتل مع هذا المخلص وسنضحّي بكل شيء.. أيمن أن نكون كاذبين أو وهميين؟

فما الذي جرى على أرض الواقع؟ قال جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٢).. نعم فالدعاء والادعاء شيء، والمواقف والمصادقية شيء آخر.

وهكذا عندما جاء الاختيار الإلهي وأبلغوا عن طريق الوحي: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾^(٣) كانت استجابتهم عكسية وعلى خلاف طلبهم

(١) سورة البقرة: ٢٤٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٤٧.

ودعائهم ووعودهم: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾^(١)؟

لقد كان المخلص على خلاف الصورة التي رسموها في أذهانهم.. ولذا لم ينزلوا عند الاختيار الإلهي بل تمردوا وأصرّوا على موقفهم المعاند إلى أن قامت عليهم الحجة بما لم يدع لهم مجالاً للإنكار، وحينها انصاعوا على مضض، واستمروا في حالة التمرد تلك إلى الساعات الأخيرة من المواجهة مع عدوّهم.

لماذا؟ لأنّ الأنا كانت هي الحاكمة على تصوراتهم وعلى مواقفهم، لا الرسالة ولا الهدف المقدس ولا كلام النبي ولا الاختيار الإلهي.

• الشهيد استيفانوس:

وإذا كان موقف الرفض والمخالفة سلبياً وذا عواقب خطيرة، فإن الموقف مرشح لما هو أخطر من ذلك، كما جاء في الآية التي صدرتُ بها حديثي حيث يتحول الموقف إلى موقف المحاربة والمشاركة في السعي للقضاء على هذه



الحركة المأمورة من السماء، بعد أن كان الإنسان ينتظر
الفرج وظهور المخلص!

فأولئك الأنبياء الذين تحدث عنهم الآية كانوا من داخل
مجتمع بني إسرائيل، وبعثوا من أجل إنقاذهم من الأوضاع
المتردة التي كانوا يمرون بها أحياناً، واستجابةً لأدعيتهم،
إلا أنهم كانوا - وفي أكثر من مشهد - ينقلبون على دعائهم،
ويسعون للتخلص من أولئك الأنبياء أو التآمر عليهم.

وهذا ما شهد به أول شهيد في تاريخ الرسالة العيسوية
وهو المعروف بالقدّيس «استيفانوس» الذي استشهد رجماً
عام ٣٦م على أثر اتهامه من قبل اليهود بأنه شتم النبي
موسى عَلَيْهِ السَّلَام!

قال: (يَا قُصَاةَ الرِّقَابِ، وَغَيْرَ الْمُخْتُونِينَ بِالْقُلُوبِ
وَالْأَذَانِ^(١)) أَنْتُمْ دَائِمًا تَقَاوُمُونَ الرُّوحَ الْقُدُسَ. كَمَا كَانَ
أَبَاوُكُمْ، كَذَلِكَ أَنْتُمْ! أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَضْطَهِدْهُ أَبَاوُكُمْ؟ وَقَدْ
قَتَلُوا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأَنْبَأُوا بِمَجِيءِ الْبَارِ^(٢) الَّذِي أَنْتُمْ الْآنَ

(١) أي لم تتطهر ولم تؤمن قلوبكم ولا آذانكم.

(٢) أي السيد المسيح.

صَرْتُمْ مُسْلِمِيهِ وَقَاتِلِيهِ، الَّذِينَ أَخَذْتُمْ النَّامُوسَ بِتَرْتِيبِ
مَلَائِكَةٍ وَلَمْ تَحْفَظُوهُ^(١).

وهي شهادة شبيهة بالآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَإَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى
أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾^(٢).

وقد جاء في إنجيل متى على لسان السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَام
قوله: (وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِيسِيُّونَ^(٣) الْمُرَاوُونَ لِأَنْفُسِكُمْ
تَبْنُونَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَتُزَيِّنُونَ مَدَافِنَ الصِّدِّيقِينَ، وَتَقُولُونَ:
لَوْ كُنَّا فِي أَيَّامِ آبَائِنَا لَمَّا شَارَكْنَاهُمْ فِي دَمِ الْأَنْبِيَاءِ. فَانْتُمْ
تَشْهَدُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْكُمْ أَبْنَاءُ قَتْلَةِ الْأَنْبِيَاءِ)^(٤). لاحظ
هذا التناقض في مواقفهم!

ولا يخفى تأمر اليهود لقتل النبي يحيى عَلَيْهِ السَّلَام، وتحريضهم
الحاكم المعين من قبل الرومان على ذلك، حتى استشهد

(١) العهد الجديد: سفر أعمال الرسل، الإصحاح ٧، ٥٣-٥٥.

(٢) البقرة: ٨٧.

(٣) من مذاهب اليهود.

(٤) العهد الجديد: إنجيل متى، الإصحاح ٥، ٢٩-٣١.



وَقُطِعَ رَأْسُهُ الشَّرِيفَ.. ثُمَّ سَعِيَهُمْ لِقَتْلِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بِالتَّعَاوُنِ مَعَ الرُّومَانِ الْوَثْنِيِّينَ، وَهُوَ مَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ
السَّابِقَةُ.

• مَا وَرَاءَ الْإِنْقِلَابِ:

وَقَدْ بَيَّنَّتِ الْآيَةُ مَحْوَرُ هَذَا الْمَوْقِفِ الْمَخِيفِ الَّذِي قَدْ يَقَعُ
فِيهِ الْإِنْسَانُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَصْلِ الْقَضِيَّةِ، وَلَرُبَّمَا كَانَ السَّاعِي
لِتَحَقُّقِهَا، فَإِذَا بِهِ يَقِفُ فِي الْمَعْسَكِ الْآخِرِ الَّذِي يَسْعَى
لِلْقَضَاءِ عَلَى صَاحِبِهَا.. وَالْمَحْوَرُ الْمَحْرُكُ نَحْوَ الْمَوْقِفِ
الْخَطِيرِ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ: ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾.

أَيُّ أَنَّ كُلَّ تِلْكَ الْمَطَالِبَاتِ وَالِابْتِهَالَاتِ وَالْأَمْنِيَّاتِ
وَالْأَدْعِيَةِ الَّتِي يَطْلُقُهَا هَؤُلَاءِ النَّاسِ لَمْ تَكُنْ نَابِعَةً مِنْ
وَعْيِ رِسَالِي بِالْقَضِيَّةِ.. لَمْ تَكُنْ بِرُوحِ خَالِصَةٍ لَوَجْهِ
اللَّهِ.. لَمْ تَكُنْ حُبًّا فِي الْخَيْرِ وَالْعَدَالَةِ.. لَمْ تَكُنْ مِنْ أَجْلِ
الْمُسْتَظْعِفِينَ وَالْمُسْتَظْهَدِينَ.. لَمْ تَكُنْ رَحْمَةً بِأَلَامِ الْأَرَامِلِ
وَدُمُوعِ الْيَتَامَى.. بَلْ كَانَتْ مِنْ أَجْلِ الذَّاتِ وَالْإِنْتِصَارِ لَهَا
وَمِنْ أَجْلِ الْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ.

فَهُمْ إِنَّمَا تَحَرَّكُوا فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ وَطَالَبُوا بِمَا طَالَبُوا



به لأنه يمثل متبناهم هم.. لأنه من الفريق الذي ينتمون إليه.. يشجعونه.. يتغلبون به على الآخرين من خلاله.. ولذا عندما لا يكون وفق رغباتهم، ويتعارض مع أهوائهم رفضوه، واستكبروا عليه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾؟

وقادهم هذا الاستكبار بعد ذلك إلى ارتكاب الجريمة الكبرى التي يمكن تصورها على نحوين: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

• اختبر نفسك :

وأبسط ما يستطيع الإنسان أن يختبر به نفسه، أصادق هوفي دعائه ومطالبته بتعجيل الفرج، أم أنه قد يتراجع في اللحظة الحاسمة إن لم ينقلب على أعقابيه، بل قد يتحول إلى المعسكر المعادي، أن ينظر إلى سلوكه الحالي.. إلى مواقفه وأفعاله.

فمحور قضية الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَام هو العدل والقسط، انطلاقاً من الروايات النبوية أنه: (يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا



وَعَدْلًا كَمَا مُلِئْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا^(١) .. فليحاكم كل فرد منّا نفسه وهو يدعو بتعجيل الفرج، أهو مع العدل ولو كان على حساب نفسه وأقرب الناس إليه، أم على خلاف ذلك؟

تماماً كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(٢). وهكذا أهو عادل في تعامله مع أهل بيته أم هو من الظالمين؟ أهو عادل في مجال عمله أم هو من الظالمين؟ ليس بالضرورة أن تكون رئيس دولة كي تكون عادلاً أو ظالماً، وكي تكتشف أنك عادل أم ظالم .. ففي كل مواقع الحياة، ومهما صغرت الدوائر، هناك عدل، وهناك ظلم.

وبقدر ما تقترب من العدل في تلك الدوائر بقدر ما يزداد احتمال أن تكون مهيناً لأن تكون في معسكر الحق ضد الباطل، وكلما تبتعد عن العدل كلما تزداد الفرصة في أن تكون من المنقلبين على أنفسهم وأدعيتهم بالفرج وقرب ظهور الحق والعدل.

(١) الحاكم: المستدرك علي الصحيحين، ج ٤ ص ٤٦٥.

(٢) النساء: ١٣٥.

• انقلاب أهل الكوفة :

وهذا ما كان من أهل الكوفة الذين راسلوا الإمام الحسين عليه السلام قائلين: (إن الناس ينتظرونك، لا رأي لهم غيرك، فالعجل العجل يا ابن رسول الله، فقد اخضرّ الجنب، وأينعت الثمار، وأورقت الأشجار. أقدم إذا شئت، فإنما تقدم على جندٍ لك مجنّدة) ^(١).

وإذا بهذه الجند المجنّدة تتحول إلى المعسكر الباغي ليضطر الإمام الحسين عليه السلام أن يقف يوم عاشوراء ليناديهم قائلاً: (تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، ثم سلّتم علينا سيفاً لنا في أيما نكم، وحششتهم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنَا وعدوكم، فأصبحتم إلّبا لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم. فهلا - لكم الويلات - تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن، والرأي لما يستحصف! ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتهم عليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها، فسحقاً

(١) المقرّم: مقتل الحسين عليه السلام، ص ١٤٤.

لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي
الكلم، وعصبة الآثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن،
ويحكم! أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟ أجل - والله -
غدرٌ فيكم قديم، وشجّت عليه أصولكم، وتأزرت فروعكم،
فكنتم أخبت ثمر، شجى للناظر وأكلة للغاصب^(١).

وأما الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فإنهم - كما
روى الطبري عن أبي مخنف - لما كَانَ الليل قَالَ لهم
الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام: (هَذَا الليلُ قَدْ غَشِيَكُمْ، فاتخذوه
جمالاً، ثُمَّ ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من اهل بيتي،
تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حَتَّى يفرج الله، فَإِن القوم
إنما يطلبوني، ولو قَدْ أَصابوني لهوا عن طلب غيري،
فَقَالَ لَهُ إِخوته وأبناءؤه وبنو أخيه وابنا عَبْدَ الله بن جَعْفَر:
لم نفعل لنبقى بعدك، لا أَرَانا الله ذَلِكَ أبداً، بدأهم بهذا
القول العباس بن علي ثُمَّ إِنَّهُمْ تكلموا بهذا ونحوه، فقال
الحسين عَلَيْهِ السَّلَام: يَا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم،
اذهبوا قَدْ أَذنت لكم، قَالُوا: فما يقول الناس! يقولون إنا

(١) العسكري: معالم المدرستين، ج ٢، ص ١٠٠.

تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا! لا والله لا نفع، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك! قال أبو مخنف: حدثني عبد الله بن عاصم، عن الضحاك بن عبد الله المشرقي، قال: فقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك! أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك. قال: وقال سعيد بن عبد الله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبه رسول الله ﷺ فيك، والله لو علمت أني أقتل ثم أحيى ثم أحرق حيا ثم أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك! وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا. قال: وقال زهير بن القين: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم

قَتَلْتُ حَتَّى أَقْتُلَ كَذَا أَلْفَ قَتْلَةٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِذَلِكَ الْقَتْلَ
عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ أَنْفُسِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ^(١).

فَكَانُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ
مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ
بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٢).



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٣-٢٤.

مقومات الجهاد

قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

هناك إثارات قوية على المستوى الفكري والإعلامي والثقافي فيما يخص مسألة الجهاد في الإسلام، وأثيرت عدة شبهات من قبل الملحدين واللا دينيين حول هذه

(١) سورة التوبة: ٤١.



المسألة، لاسيما بلحاظ الممارسات الوحشية واللا إنسانية التي يقوم بها التكفيريون وبعنوان الجهاد والقتال في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وهذا يستدعي التوقف قليلاً ومراجعة النصوص التي تعالج هذا الموضوع أو الأخبار التي تنقل إلينا تفاصيل أحداثه المتعلقة بزمان النبي ﷺ وفي حروب الردة وفي زمن الفتوحات أيضاً.

• القاعدة الأساس:

ولعلنا نستطيع القول أن القاعدة الأساس في فهم المسألة ورسم معالمها الأولية تتمثل في قوله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

فالقتال يكون ضد أولئك الذين قاتلوا المسلمين بلحاظ قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، وأما ضد مَنْ سواهم فهو نوع من العدوان، وهو منهي عنه، ولذا قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

(١) سورة البقرة: ١٩.

وأوضح من ذلك دلالة قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ اعْتَزَلْتُمْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا، سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتَلَوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١).

أي أَنَّ القتال إنما يُشرَّع بحق مَنْ يسعى منهم إلى التصعيد ولا يريد تهدئة الأوضاع ويقوم على إثر ذلك بالاعتداء على المسلمين، وأما المسالمون الذين لم تصدر عنهم مثل هذه الأمور، فلا سبيل للمؤمنين عليهم، ولم يسمح الله بقتالهم.

• السلم والحذر من الغدر:

وهكذا نجد الأمر الإلهي بالمصالحة لمن جنح إلى السلم منهم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ



فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ، وَإِنْ جَنَحُوا
لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ،
وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ
بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ^(١).

أي إذا تأكدنا من ميل الطرف الآخر للسلام وعدم
العدوان فقد لزم على المؤمنين الإجابة لذلك، على أن
يبقى المؤمنون في حالة حذر من الطرف الآخر الذي لربما
يعتمد إلى التظاهر بالسلم من أجل الأخذ على حين غرة، أو
لالتقاط الأنفاس للاستعداد لمواجهة أخرى.

فهل وجود مثل هذا الاحتمال يسمح للنبي ﷺ برفض
حالة السلم؟ الآية تبقى على توجيهها نحو السلم، وتأمّر
النبي بالتوكل على الله، مع إعداد الأسباب الكفيلة برد
الخيانة لو وقعت.

وللعلامة الطباطبائي توجيه معنوي لطيف حيث قال:
(هذا مما يدل على أن هناك أسباباً وراء ما ينكشف لنا من
الأسباب الطبيعية العادية، تجري على ما يوافق صلاح

العبد المتوكل إذا خائته الأسباب الطبيعية العادية ولم تساعده على مطلوبه الحق^(١).

• وصايا النبي للمقاتلين:

وعلى هدي هذه الآيات الشريفة سار النبي ﷺ في سيرته العسكرية، وكان يوصي السرايا التي يبعثها في الاتجاهات المختلفة للالتزام بمجموعة من التوصيات التي تخص هذا الإطار العام.

ومن ذلك ما عن بريدة قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله) هذا الأمر بالغزو الذي نجده في بداية الوصية لم يخص الآمنين من غير المسلمين، بل أولئك الذين كانوا:

١- ممن يغزون أو ينوون غزو أطراف المدينة المنورة ليربكوا الحالة الأمنية فيها.

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ١١٨.

٢. أو ممن دخلوا في تحالفات عسكرية مع قريش التي كانت تقاتل المسلمين على الدوام واشتركوا معها في غزواتها.

٣. أو من الذين كانوا يعتدون على المسلمين في حركتهم التجارية أو غير ذلك من صور التحرش والاعتداء الميداني والعسكري بحق بعض المسلمين، كما جرى لبعض حاملي رسائل النبي ﷺ.

(اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا



فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم،
 فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل
 حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا
 تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك
 وذمة أصحابك، فإنكم إن تخضروا ذممكم وذمم أصحابكم
 أهون من أن تخضروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت
 أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم
 على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري
 أتصيب حكم الله فيهم أم لا^(١).

• تمييز بين فئتين:

ولذا نجد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يميِّز في الموقف بين فئتين، قال
 في الأولى منهما: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
 فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا
 إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢).

بينما قال بشأن الثانية منهما: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ

(١) مسلم: الجامع الصحيح، ح ١٧٣١.

(٢) سورة الممتحنة: ٨.

الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾.

الإسلام لم يستهدف القتال ولا كانت غايته أن يسفك الدماء، وكان الوصية الدائمة بعدم البدء بالقتال، بل كان يستغل أية فرصة سانحة لحقن الدم.

في صحيح البخاري: (أن رسول الله ﷺ قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه. قال فبات الناس يدوكون ليلتهم^(٢) أيهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا يشتكي عينيه يا رسول الله. قال: فأرسلوا إليه فأتوني به. فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال انض على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما

(١) سورة الممتحنة: ٩.

(٢) أي يمججون ويختلفون فيما بينهم.



يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم^(١).

وهكذا في وسائل الشيعة عن الإمام الصادق عليه السلام: (قال أمير المؤمنين عليه السلام: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: يا علي، لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يدك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت)^(٢).

• خطأ أسامة:

ومن هنا نتفهم حساسية النبي وشدته تجاه الخطأ الذي وقع فيه أسامة بن زيد في ساحة المعركة في لحظة يصعب فيها على الإنسان اتخاذ القرار السليم، ففي صحيح مسلم عن أسامة بن زيد قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة^(٣) فأدركت رجلاً فقال: لا

(١) البخاري: الجامع المسند الصحيح، ح ٣٩٧٣.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٤٣.

(٣) وهؤلاء بطن من جهينة، وجهينة قبيلة يمنية الأصل واستوطنت الأرض الواقعة ما بين المدينة ووادي القرى وكانت السرية ما بين سنة ٧ أو ٨ للهجرة.

إله إلا الله، فطعنْتُه، فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم قالها أم لا؟ فما زال يكررها عَلَيَّ حتى تمنيتُ أني أسلمتُ يومئذٍ^(١).

وفي تنمة الحديث نقرأ المقطع التالي الذي يتحدث عن كيفية دخول الشبهة على أحدهم وهو يحاول أن يبحث عن مخرج شرعي لما صدر عن أسامة: (قال: قال رجل: ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(٢)؟ قال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة).

وهذه ملاحظة مهمة... فالفهم الخاطيء للتشريعات القرآنية الخاصة بالقتال واجتزاء الآيات، وإبعادها عن ظروفها وسياقها، وعدم تقييد بعضها ببعض، سيؤدي بالناس إلى إحداث الفتن، بينما غاية الإسلام من القتال

(١) مسلم: الجامع الصحيح، ح ٩٦.

(٢) سورة الأنفال: ٣٩.

تحقيق واستتباب الأمن والسلام، لا خلق النزاعات والتشفي بسفك الدماء.

• خطأ خالد:

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه: (بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يُحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صباناً صباناً. فجعل خالد يقتل منهم ويأسر! ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يومُ أمر خالد أن يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِّنَ أَسِيرِهِ! فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجلٌ من أصحابي أسيره^(١) حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه فرفع النبي ﷺ يده فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين^(٢)).

قال ابن حجر في شرحه للحديث: (وزاد الباقر في روايته ثم دعا رسول الله ﷺ علياً فقال: اخرج إلى هؤلاء

(١) وفي رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى أن المهاجرين والأنصار أرسلوا أسراهم ورفضوا قتلهم.

(٢) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ٤٠٨٤.

القوم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك. فخرج حتى جاءهم ومعه مال، فلم يبقَ لهم أحد إلا وداه^(١) (٢).

ثم ذكر ابن حجر ما جرى لأحد هؤلاء الأسرى في الطريق وكان يحب امرأة منهم وأضاف: (وقد روى النسائي والبيهقي في «الدلائل» بإسناد صحيح من حديث ابن عباس نحو هذه القصة وقال فيها: فقال إني لست منهم، إني عشقت امرأة منهم فدعوني أنظر إليها نظرة - قال فيه - فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟^(٣)).

• معايير ضرورية:

هذه هي المعايير التي يجب أن تُعرض عليها النصوص الخاصة بالقتال في التشريع الإسلامي، لنُميِّز بين ما صح منها، وبين ما هو دخيل موضوع عن عمد لتشويه الإسلام،

(١) وداه: أعطى ديته لأهله.

(٢) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ٤٠٨٤.

(٣) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ٤٠٨٤.



أو للانتقام منه، أو لتبرير أفعال الحكام والولاة في الزمن
اللاحق، أو جاء في سياق حكايات القصّاصين الذين كانوا
يهدفون إلى الإثارة والتحويل لكسب المزيد من المستمعين،
وزيادة الغلة من المال المقدّم إليهم. لقد كانت تلك النوعية
من الروايات الدخيلة مناسبة للروح الدموية لدى الأمويين،
وبرّرت الجرائم التي ارتكبوها بحق أهل البيت وأنصارهم
وبحق خيرة صحابة رسول الله والتابعين وعامة الناس، قبل
أحداث الطف وبعدها.

• شهادة أبي الفضل:

ولقد قدّم أبو الفضل العباس رضي الله عنه أروع الأمثلة في
البطولة والصبر في طريق الجهاد والدفاع عن الدين والقيم
التي آمن بها، وهو القائل:

والله إن قطعتموا يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

كما قدّم أروع مثال في التضحية من أجل الآخر، حيث
عرّض نفسه للموت، وقد تلوّع قلبه الشريف لمنظر الأطفال
العطاش في يوم عاشوراء، فأنبرى لجلب الماء إليهم غير
متهيبٍ من جموع الأعداء.



روى بعض أصحاب السَّيَر أن العباس - في اليوم العاشر من المحرم - قدَّم إخوته لأمه وأبيه، وقال: (تقدَّموا لأحتسبكم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه لا وُلْدَ لكم. فتقدَّموا حتى قُتِلُوا، فجاء إلى الحسين عَلَيْهِ السَّلَام واستأذنه في القتال، فقال عَلَيْهِ السَّلَام له: أنت حاملٌ لوائي. فقال: لقد ضاقَ صدري وسئمتُ الحياة. فقال له الحسين عَلَيْهِ السَّلَام: إن عَزَمْتَ فاستسِقِ لنا ماءً، فأخذ قُرْبَتَهُ وحمل على القوم حتى ملأ القربة. قالوا: واغترف من الماء غُرْفَةً ثم ذكر عطش الحسين عَلَيْهِ السَّلَام فرمى بها وقال:

يا نفسُ من بعد الحسين هوني

وبعده لا كنت أن تكوني

هذا الحسين وارِدُ المنونِ

وتشربين بارد المعين؟

ثم عاد فأخذ عليه الطريق، فجعل يضربهم بسيفه. وأخذ الراوي يصف كيف تلقى ضربةً على يمينه فبريت، فأخذ اللواء بشماله فتلقى عليها ضربةً فبريت، فضمَّ



اللواء إلى صدره، فُضِرِبَ بعمود على رأسه، فخر صريعاً
ونادى بأعلى صوته: أدركني يا أخي. فانقض عليه أبو
عبدالله كالصقر فرآه مقطوع اليمين واليسار مرضوخ
الجبين مشكوك العين بسهم، مرتثاً بالجراحة^(١).

إنا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
ينقلبون والعاقبة للمتقين.



(١) الأزدي: مقتل الحسين، ص ١٧٨-١٧٩.



فتنة الأبناء



قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

هذه الحالة الفتنوية الناشئة عن علاقة الآباء بأبنائهم من خلال ما عرضه القرآن الكريم يمكن تصورها على مراتب:

(١) سورة التغابن: ١٥.



• المرتبة الأولى:

مرتبة الإلهاء كما في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمُ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١). ولعلها أخف المراتب.

فعندما يأخذ الشيء بمجامع القلب فإنه يلهي الإنسان عما سواه... عندما يُعرض فيلم سينمائي مميز جداً من حيث القصة والحبكة والتصوير والتمثيل والإخراج والموسيقى التصويرية، فإن هذا الفيلم يأخذ بمجامع القلب، ويلهي الإنسان عما سواه، بل قد لا يشعر بما يجري حوله.

وهكذا إذا كان محباً لكرة القدم مثلاً، وكان الفريق الذي يشجعه في وضع حرج أو قد أبدع في اللعب، فإنها تجد هذا الإنسان مشدوداً بقوة إلى المباراة، وقد أخذت بمجامع قلبه حتى أنه يتلهّى عن كل شيء آخر.

هكذا الإنسان إذا أخذ أولاده بمجامع قلبه، وصاروا هم كل شيء في وجوده، فإنهم سيكونون سبباً لتلهّيه عن كل



شيء، حتى عن التزاماته الشرعية، وعن تحقيق التوازن بين مسؤولياته الدنيوية ومسؤولياته الأخروية، لاستغراقه في أوضاع أبنائه.

وقد وصف القرآن الكريم بأن الأبناء زينة الحياة الدنيا، قال ﷺ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾^(١).

فهل من المنطقي أن يترك الإنسان ما هو خير ثواباً وخيراً مؤملاً ومذخور للمستقبل الأخروي، ويستغرق فيما هو دون ذلك؟

لذا حذرت الآية الشريفة من مثل هذه الاستغراق الملهي عن ذكر الله، وخلو القلب عن هذا الذكر، فلا يبقى له من الإيمان إلا القول، وأما العمل فيتناقص ويتناقص إلى أن يختفي تقريباً.

ونسيان العبد لربه يستعقب إهمال الله عز وجل لهذا العبد، قال ﷺ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٢). وهذا الإهمال الإلهي

(١) سورة الكهف: ٤٦.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.



لعبده هو الخسران المبين كما قالت الآية: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١).

بالطبع هذا لا يعني أن الإسلام يدفع باتجاه إهمال الأبناء، ولكن المبالغة في العناية بشؤونهم على حساب ذكر الله وذكر الآخرة والاستعداد للحياة الآخرة التي تتطلب ثمناً لها في الدنيا، كل هذا يُعدُّ نوعاً من الإفراط.

ولربما من مظاهر ذلك في أيامنا هذه الاستجابة لطلب الأبناء في أكثر أيام الجُمُع للذهاب إلى الشاليهات والمخيمات وأمثال ذلك، مما يُشغل الآباء عن الذهاب إلى المساجد يوم الجمعة.

في الواقع لم يبق من علاقة الكثيرين بالمسجد إلا يوم الجمعة.. طوال الأسبوع هم في شُغل.. عن صلاة الجماعة، وعن تلاوة القرآن فيها، وعن حضور الدروس النافعة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: (مَنْ اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردُّه



عن ردى، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو يترك ذنباً خشية أو حياء) ^(١).

صار أكثر الناس يفتقدون كل هذه المنافع لابتعادهم عن المساجد خلال الأسبوع، ولم يتبقّ لهم إلا يوم الجمعة.. وحتى هذا اليوم بدأوا يتخلّون عن حضور المساجد فيه.. والعذر أنه يوم الترفيه عن الأهل والأبناء.

هذا مصداق من مصاديق مخالفة قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في هذا العصر.

• المرتبة الثانية :

مرتبة الإغواء لارتكاب المعاصي! الآيات التي تحذر من أن يتحوّل الأبناء إلى سبب لمعصية الله وارتكاب المحرمات وخسران المصير في الآخرة. قال ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٢).

ويمكن أن ندرك المراد من ذلك حين نعود إلى جوّ سورة

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٤٨٠.

(٢) سورة الأنفال: ٢٨.



الأنفال النازلة في السنة الهجرية الثانية في سياق غزوة بدر الكبرى. فقد جاء النداء النبوي للمسلمين للالتحاق بالقوة العسكرية المشكّلة للخروج للقتال في مواجهة محتملة مع مشركي قريش.. فتقاعس كثيرون عن الخروج.

كانت الأسباب وراء ذلك متعددة، من بينها الخوف من الموت، كما في قوله جَلَّوَعْلَا: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ... وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾^(١).

ومن بينها الخوف على فوات موسم حصاد المحاصيل الزراعية، أو عدم القدرة على العناية بها خلال فترة الانشغال بالحرب أو الإصابة في المواجهات العسكرية، أو فوات الموسم التجاري أو القوافل التجارية العابرة وأمثلة ذلك.

ومن بينها الخوف على مصير الأبناء وتأمين أرزاقهم، أو شدة التعلق القلبي والعاطفي بهم بحيث يخشى فراقهم، أو يعلم أنه سيهيم به الشوق إليهم فيما لو تركهم وخرج لأداء مسؤوليته القتالية مع النبي ﷺ، مما يجعله يتقاعس عن أداء

(١) سورة آل عمران: ١٤٣-١٤٥.



مسؤوليته. وهذا ملحوظ من بعض الآباء أو الأمهات، فلفرط
حبهم لأبنائهم يتنازلون عن التزامهم الشرعي.

فَتَحَّتْ ضغط ابنتهم غير الراغبة في الالتزام باللباس
الشرعي يسمحون لها بذلك.. ولرغبتها في إقامة حفل
زفافها تصدح فيه المعازف، يتنازلون عن التزامهم في تلك
الليلة ويستجيبيون لها.

وهكذا قد يندفع الأب إلى شهادة الزور والكذب واليمين
الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم والنار من أجل أن
يجعل الحكم لصالح ابنه المخطيء أو مرتكب الجريمة عن
عمد.

الفكرة واحدة.. حب الأبناء الذي يدفع إلى أن يكون سبباً
لارتكاب المعاصي عن علم وعمد إرضاءً لهم وإن كان ذلك
سبباً لترتب الغضب الإلهي.. هنا صار الأبناء فتنة ومورداً
للاختبار وسبباً للسقوط وال فشل فيه.

• المرتبة الثالثة :

وهي الأخطر إذ يتحوّل الأبناء إلى أعداء من حيث لا



يشعر الآباء، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١).

ففي زمن نزول النص كان الأمر متصوراً في الأبناء المشركين الذين كانوا يضغطون على آبائهم لحرفهم كلياً عن مسيرة الرسالة النبوية إلى سبيل الشيطان، من خلال ترك الإسلام أساساً، أو رفض جهاد المشركين - وفيهم أبناؤهم - أو حتّهم على كشف الأسرار العسكرية وما إلى ذلك، وكله إما من منطلق عاطفي لشدة حب الآباء للأبناء، وإما من خلال العصبية وروحية الانتماء.

عن الباقر عليه السلام حول الآية السابقة: (وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا: ننشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذّرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من يمضي ويذرهم)^(٢). الأبناء الذين يكونون على هذه الشاكلة هم أعداء بحسب الآية، تماماً كحال العدو الغريب.

(١) سورة التغابن: ١٤.

(٢) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآية.



• قصة حاطب:

الصحابي حاطب بن أبي بلتعة كان حليفاً لبني أسد بن عبد العزى وهم فرع من قريش، ولم يكن شخصاً بلا هوية، بل كان متمولاً ويشغل بالتجارة، ويبدو أنه كان في العهد المكي يذهب إلى مصر لتجارته، ولذا جعله النبي ﷺ مبعوثه إلى المقوقس.

ترك كل ذلك وهاجر إلى المدينة المنورة مسلماً صادقاً، وشارك في معارك النبي ﷺ وكان من الرماة المهرة، ومن المبايعين في بيعة الشجرة يوم صلح الحديبية التي رضي الله فيها عن المؤمنين.

في أجواء فتح مكة دفعته العاطفة الشديدة تجاه أولاده وأقربائه إلى ارتكاب خيانة عظمى حيث أرسل رسالة مع ماشطة كبيرة في السن يحذّرهم فيها من هجوم محتمل على مكة!

أبناءؤه كانوا فتنته.. كانوا أعداء له من حيث لا يشعر ولا يريد.. أعداء بمعنى أن الاستجابة لهم سبب لغضب الله.



وجاء المدد الإلهي لنبيه ﷺ، إذ حذّره الوحي من هذه الخيانة، فبعث علياً والزبير ليلحقا المرأة، ولما أوقفهاها أنكرت فهددها علي عليه السلام وخوفها، فأخرجت الورقة من بين شعرها.

استدعى النبي حاطباً وسأله عن الدافع وراء فعلته الشنيعة هذه، فقال: (كان بمكة قرابتي ووُلدي، وكنت غريباً فيكم معشر قريش) بلحاظ أنه حليف قريش وخاف من انتقامهم من أهله الذين يعيشون بمكة، أو خاف من أن لا يكون لأهله أهمية في وسط زحمة الأحداث القادمة ضمن الفتح فيقتلون أو يتحوّلون إلى أسرى وسبي. ثم عفا النبي عن حاطب إذ علم صدق كلامه.

• الإمام علي يصف الوضع:

وهذا يجعلنا ندرك قيمة الشاء الوارد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول واصفاً تلك المرحلة: (وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ^(١)،

(١) اللقم: الطريق والجادة.

وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ ^(١) وَجِدًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ ^(٢).
فالمسألة ليست سهلة أبداً.

• توظيف الآية سلبياً:

والغريب وأنا أبحث في الآية، أن تتمثل لي مرة أخرى قدرة الماكنة الإعلامية المعادية لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام على توظيف مثل هذه الآية ضدهم، فنجد عدة من رواة الحديث يروون عن بريدة الأسلمي أنه قال: (كان النبي ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال: صدق الله قال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ^(٣)، إِنِّي لَمَّا نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن أقطع كلامي ونزلت إليهما) ^(٤).

(١) مضض الألم: لذعته.

(٢) الشريف الرضي: نهج البلاغة، خ ٥٥.

(٣) سورة التغابن: ١٥.

(٤) الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، في تفسير الآية ١٥ من سورة التغابن.

لاحظ كيف اعتُبرت هذه الرعاية النبوية فتنة، وهو تصرف طبيعي وقد يصل إلى حد الوجوب إن كان درءً للأذى والضرر المحتمل. وهنا يتداعى مصطلح الفتنة مع تداعى اسم الحسن والحسين!

ولذا قال العلامة الطباطبائي بعد تلك الرواية: (وأفضع لحناً من هذا الحديث ما رواه عن ابن مردويه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج الحسين بن علي فوطأ في ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر. فلما رأى الناس أسرعوا إلى الحسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع في يد رسول الله ﷺ فقال: قاتل الله الشيطان! إن الولد لفتنة، والذي نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري) (١).

نعم، أرادت هذه الماكنة الإعلامية الأموية أن تشوّه صورة النهضة الحسينية، إذ تجعل عنوان «الفتنة» حاضراً كلما تداعى اسم الحسين عليه السلام وتداعت نهضته إلى الأذهان.

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٢١٠، والرواية رواها السيوطي في الدر المنثور، في تفسير الآية ١٥ من سورة التغابن.

وحسبوا أنهم قد ربحوا المعركة.. ونسوا الوعد الإلهي
حيث قال ﷺ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(١)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَوْلُهُ الصِّدِّيقُ
وَوَعْدُهُ الْحَقُّ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ
مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

• شهادة القاسم:

لقد أحب الحسين عَليهِ السَّلَامُ أبناءَ إخوته - لاسيما أبناء أخيه
الأكبر الإمام الحسن المجتبي عَليهِ السَّلَام - أيما محبة، إلا أن ذلك
الحب لم يكن ليمنعه من أن يقدمهم أبطالاً - ومن بعد ذلك
شهداء - في طريق الحق والدفاع عن الدين والمقدسات.

وكان القاسم بن الحسن - على الرغم من صغر سنه -
أحد أولئك الأبطال الذين لم يتهيبوا السيف وكثرة الأعداء
ووحشيتهم، ما دام أن في ذلك رضاً لله عز وجل.

عن حميد بن مسلم: (خرج إلينا غلام كأن وجهه
شقة قمر، في يده السيف عليه قميص وإزار ونعلان، قد

(١) سورة غافر: ٥١.

(٢) سورة الصف: ٦١.



انقطع شسع^(١) أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى. فقال لي عمرو بن سعد بن نضيل الأزدي: والله لأشدنّ عليه. فقلت له: سبحان الله، وما تريد إلى ذلك؟ يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. قال: فقال: والله لأشدنّ عليه. فشدّ عليه، فما ولّى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه فقال: يا عماء! قال: فجلى الحسين كما يجلى الصقر^(٢)، ثم شدّ شدة ليث غضب، فضرب عمراً بالسيف، فاتّقاء بالساعد، فأطنّها من لدن المرفق، فصاح، ثم تنحّى عنه وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من حسين، فاستقبلت عمراً بصدورها فحركت حوافرها وجالت الخيل بفرسائها عليه فوطئته حتى مات، وانجلت الغبرة فإذا أنا بالحسين قائم على رأس الغلام والغلام يفحص برجليه وحسين يقول: بعداً لقوم قتلوك ومنّ خصمهم يوم القيامة فيك جدك. ثم قال: عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك ثم لا ينفعك. صوتُ والله كثر واطرّه، وقلّ ناصرُه.

(١) الشَّسْعُ: سَيْرٌ يمسك النَّعْلَ بِأَصَابِعِ القدم.

(٢) جلى: رفع رأسه ثم نظر.



ثم احتمله فكأنّي أنظر إلى رجلي الغلام يخطّان في الأرض، وقد وضع حسين صدره على صدره. قال: فقلت في نفسي: ما يصنع به؟ فجاء به حتى ألقاه مع ابنه علي بن الحسين وقتلني قد قُتلت حوله من أهل بيته. فسألت عن الغلام فقيل هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(١).



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣١.



أبناء وتطلّعات



تحدثت في الليلة الماضية عن تصوّر الحالة الفتوية الناشئة عن علاقة الآباء بأبنائهم من خلال ما عرضه القرآن الكريم.

وهناك اتجاه آخر في الحديث القرآني عن علاقة الآباء بالأبناء، وهو حديث تطلّع الآباء إلى أبنائهم. وهو حديث متنوع، من بينه:



• أمنيّات وشرك بالله :

التطلع إلى أن يُرزق بالذرية الصالحة، كما في قوله جلّ وعلا:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ... إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

ونلاحظ هنا التوجه الخالص لدى الوالدين نحو الله، لعلمهما الفطري بأن لا أحد قادر على ذلك سواه، فهو الخالق الرازق، وأن كل صلاح متعلق بهذا المولود على مستوى الصحة والسلامة الجسدية والعقلية والتوفيق للصلاح في الأخلاق والسلوكيات العامة هو من عند الله جلّ وعلا.

ومن هنا تنطلق الوعود بأن يكون الشكر لله، والآية تأتي بلام ونون التوكيد للدلالة على ذلك.



ولكن المفارقة أنه بمجرد أن يتحقق المراد وتلد المرأة الطفل، يُنسى الرازق الحقيقي، ويتوجّه الشكر إلى المخلوق.. وإذا كان هذا النوع من الانحراف ونكران الجميل عند المشركين بنسبة الفعل إلى الآلهة المزعومة، فإننا اليوم نشهد صوراً عديدة من ذلك.

مثال: عندما يتأخر الحمل عند المرأة، وتدعو وتندّر وتلجأ إلى الأطباء، ثم تُرزق بالولد، فإن أكثر الذكور والشكر يتوجه إلى الطبيب المعالج بطفل الأنبوب وغير ذلك... هذا نوع من الشرك الخفي الذي حذّرت منه الآية، ولنلاحظ الحديث التالي:

عن مالك بن عطية عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَام: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ^(١) قال: (هو الرجل يقول: لولا فلان لهلك، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولضاع عيالي، ألا ترى أنه جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه؟ قال: قلت: فيقول: لولا أن من

الله عليّ بفلان لهلكت؟ قال: نعم، لا بأس بهذا) ^(١).

وهكذا عندما يولد الطفل ويبدأ الأب بنسبة الصفات الجميلة والحسنة في المولود إلى نفسه وجيناته، وهكذا تفعل الأم، وينسون أن هذا كله من عند الله، في الوقت الذي سبق وطلبوا من الله أن يأتيهما صالحاً.. فإن هذا أيضاً نوع من الشرك الخفي.

البعض يتوسلون ببعض أنواع الأحجار والخواتم وما أشبه ذلك في مثل هذه الحالات، وهذا كله يدخل في الباب الذي حذرت منه الآية الشريفة. والمطلوب أن يكون التوجه والشكر لله عزوجل. وهذا لا يمنع شكر المخلوق كالطبيب، على أن لا يكون هو الأصل.

والأرقى من الدعاء بالرزق بالذرية الصالحة أن يطلب الإنسان الذرية التي تنهض بمسؤولياتها الرسالية وتكمل ما بدأه الآباء في هذا الطريق: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي



مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا^(١).

لقد قرأ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ واقع الكهنة الذين كانوا سيعملون مسؤولية الرسالة الإلهية وحفظها وتبليغها من بعده، فلم يجد فيهم الكفاءة لذلك.. لقد خاف من أطماعهم الدنيوية، ومن انعدام التقوى في قلوبهم، فدعا الله أن يرزقه ولياً.. ولداً ذكراً يرث هذه المسؤولية التي حملها أنبياء بني إسرائيل^(٢) عبر مئات السنين.. فاستجاب الله دعاءه وأقر عينه ببيحيى.

وفي الوقت الذي يدعو ويتمنى فيه البعض أن يُرْزَقَ بولد واحد.. يقوم آخرون بقتل أبنائهم! بما في ذلك قتل الجنين «الإجهاض المتعمد». قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾^(٣). والنهي ليس مخصوصاً بحالة خشية الإملاق، ولكن هذا السبب كان أحد أهم الدوافع في زمن نزول النص، وبالتالي فأصل قتل الأبناء، بما في ذلك الأجنة، قبل الأربعة

(١) سورة مريم: ٤-٦.

(٢) أي من ذرية النبي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) سورة الإسراء: ٣١.

أشهر الأولى من الحمل أو بعدها أمر محرّم، وتترتب عليه عدة أمور، من بينها إثم جريمة القتل، والدية والتي تختلف بحسب عمر الجنين، إن كان جنيناً، وبحسب جنسه إن كان مولوداً. هذا علاوة على الكفارة وهي صوم شهرين متتابعين وإطعام ستين مسكيناً، لكل مسكين مدّ من الطعام.

• المستقبل الأخروي للأبناء :

٢. التطلع إلى المستقبل الأخروي للأبناء، كما في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(١).

تكون الذرية قرّة عين حين يعيش الإنسان الشعور بالسرور عندما ينظر إليهم وهم يؤمنون بالله، ويلتزمون طاعته ورضاه، ويكونون محبوبين ممدوحين ناجحين مفلحين بارّين. وأن يتحوّلوا ليكونوا القدوة للآخرين، والقادة نحو الخير، والهداة للناس السائرين في طريق لا تقوى وطاعة الله، بحيث يبلغوا الدرجة العليا من ذلك.

طموحاتهم لا تتوقف على شؤونهم الذاتية في الحاجات

الدينية الطبيعية.. زوجة جميلة.. سيارة فاخرة.. وظيفة محترمة.. ساعة ماركة.. كل هذه زهرة الحياة الدنيا.. زُخْرُفٌ.. وأما عباد الرحمن فطموحهم يتجاوز هذا بحثاً مواقع رضوان الله في تقوى الذات والعمل الصالح وهداية الآخرين.

ومن هنا لم يتوقف الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند حد المنزلة التي حازها من عند الله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ طموحه لم يتوقف عند هذا الحد، بل كان يتمنى ويتشوق إلى أن تكون ذريته عبر الزمن ناجحة في الوصول إلى ذات المقام وتنال ذات العطاء الإلهي.. أن يكونوا القادة الهداة ولذا: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وفي موقع آخر قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لِّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ،

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

وكان له ما تمنى... واستمرت النبوة في ذريته في
الفرعين.. إسحق وإسماعيل.. حتى قال نبينا الأكرم ﷺ:
(أنا دعوة أبي إبراهيم) ^(٢). وبين إبراهيم والنبي قرابة
٢٥٠٠ سنة.. هكذا تكون الهمم، وهكذا يكون العطاء الإلهي.

قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ
أَمْرٍ إِنَّمَا عِندَ رَبِّهِ بِمِثْلِ هَؤُلَاءِ﴾ ^(٣).

• مشروع تربوي:

وهذا التطلع إلى المستقبل الأخروي للأبناء لا يتوقف
عند حد الدعاء، بل هو مشروع تربوي، وعمل دؤوب، وتوفيق
إلهي، وفي الآخرة يجمع الله هذه الأسرة السعيدة الموفقة
في درجة واحدة وفي جنة واحدة ليعيشوا مع بعضهم البعض.

(١) سورة البقرة: ١٢٧-١٢٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ح ٣٧٩.

(٣) سورة الطور: ٢١.

في الدر المنثور عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾. قال: وما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين^(١).

وفي الكافي بإسناده عن ابن بكير عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام في قول الله جلَّ جلاله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ قال: (قصرت الأبناء عن عمل الآباء فألحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم)^(٢).

وأما أن ندعو ليل نهار وتنترح جفوننا من البكاء ليُستجاب دعاؤنا بينما نُسلمُ أبناءنا لكل ما هو موجود على الإنترنت، ولا توجيه، ولا تعليم، ولا نصيحة، ولا قدوة صالحة، بل تشاغل عنهم حتى إذا كبروا ودخلوا سن المراهقة والتكليف عرضنا عليهم التزاماتهم فإذا بهم ينفرون.

(١) السيوطي: الدر المنثور في تفسير الآية ٢١ من سورة الطور.

(٢) الكليني: الكافي، ج ٣، ص ٢٤٩.



كما قال الإمام علي عليه السلام في وصيته للحسن عليه السلام: (أي بني إني لما رأيته قد بلغت سنأ، ورأيتني أزداد وهناً، بادرت بوصيتي إليك، وأوردت خصالاً منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أفضي إليك بما في نفسي، وأن أنقص في رأيي كما نقصت في جسمي، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا، فتكون كالصعب النفور. وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شئ قبلته. فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشغل لبك، لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفأك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كُفيت مؤونة الطلب، وعُوفيت من علاج التجربة، فأذاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه) (١).

• قرّة عين الحسين:

وفي يوم عاشوراء كان علي الأكبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرّة عين أبيه الحسين عليه السلام.. وكان للمتقين إماماً في طاعة الله وفي طاعة إمام زمانه وفي البطولة وفي الشجاعة وفي بر الوالدين..

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٣١.



روى الطبري عن الليلة التي سبقت مواجهة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام مع الحر بن يزيد الرياحي ومنعه من المضي نحو الكوفة، عن عقبة بن سميان قال: (لما كان في آخر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء، ثم أمرنا بالرحيل ففعلنا، قال: فلما ارتحلنا من قصر بني مقاتل وسرنا ساعة، خفق الحسين برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. قال: ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، قال: فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين، على فرس له، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، يا أبتِ جُعِلَتْ فداك، مم حمدت الله واسترجعت؟ قال: يا بني، إني خفقت برأسي خفقة فَعَنَّ^(١) لي فارسٌ على فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم. فعلمت أنها أنفسنا نُعِيَتْ إلينا. قال له: يا أبتِ، لا أراك الله سوءً، ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد. قال: يا أبتِ، إذاً لا نبالي، نموت محقين. فقال له: جزاك الله من ولد خير ما جرى ولداً عن والده)^(٢).

(١) أي بدا وظاهر واعترض الطريق.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٩.



وأما في يوم العاشر من المحرم، فقد روى ابن كثير قال:
 (ثم قاتل أصحاب الحسين بين يديه حتى تفانوا، ولم يبق
 معه أحد إلا سويد بن عمرو بن أبي مطاع الخثعمي. وكان
 أول قتيل قُتل من أهل الحسين من بني أبي طالب عليُّ
 الأكبر بن الحسين بن علي، وأمه ليلى بنت أبي مرة بن
 عروة بن مسعود الثقفي، طعنه مُرةً بن منقذ بن النعمان
 العبدي فقتله، لأنه جعل يقي أباه، وجعل يقصد أباه، فقال
 علي بن الحسين:

أنا علي بن الحسين بن علي

نحن وبيت الله أولى بالنبى

تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

كيف ترون اليوم سِتري عن أبي

فلما طعنه مُرةً احتوشته الرجال، فقطعوه بأسيا فهم،
 فقال الحسين: قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجراًهم
 على الله وعلى انتهاك محارمه؟! فعلى الدنيا بعدك
 العفاء^(١).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٠٠-٢٠١.



وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى بعد المشهد السابق:
 (وضمه أبوه إليه حتى مات. فجعل الحسين يقول: اللهم
 دعونا لينصرونا فخذلونا وقتلونا. اللهم فاحبس عنهم
 قطر السماء وأمنعهم بركات الأرض فإن متعتهم إلى حين
 ففرقهم شيعاً واجعلهم طرائق قديداً. ولا تُرضي الولاة
 عنهم أبداً)^(١).



(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٤٧١.



سُنةُ الله



قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَضَرَبْنَا كَذِبَتْكُمْ وَفَرَقْنَا تَقْتُلُونَ﴾ (١).

تبيّن هذه الآية الشريفة موقف اليهود من الرسل الذين

كان يبعثهم الله ويحملهم مسؤولية الدعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن النكر ومواجهة صور الفساد في مجتمع بني إسرائيل.

ابتداءً من النبي موسى عليه السلام الذي جاء معززاً بكتاب من عند الله، ومروراً بالرسل الذين جاءوا من بعده، كيوشع بن نون، وداود وسليمان وزكريا ويحيى عليهم السلام، وانتهاءً بالمسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

فكانت هذه الرسائل تتوالى عليهم دون انقطاع، وتواجههم بالواقع الانحرافي الذي كانوا يعيشونه في كل مرة، إلى المستوى الذي يتجرّءون فيه على الشرك بالله، وإتيان ما شاءوا من الموبقات، وشرعنة كل ذلك من خلال تسويلات أحبارهم الفاسدين، والتحايل على الأحكام الشرعية وغير ذلك.

• مخالفة وصية النبي موسى:

بحسب التوراة الحاضرة فإن موسى عليه السلام حين أحسّ بقرب موته، وقد دوّن لهم ما نزل من آيات التوراة وقدمه لهم قال: ﴿خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَةِ هَذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ

الرَّبِّ إِلَهُكُمْ، لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ. لِأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمْ الصُّلْبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمْ الْيَوْمَ، قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي؟ ﴿١٩﴾^(١).

ويكمل النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سبب الترتيبات الأخيرة التي اتَّخَذَهَا قَبِيلُ وَفَاتِهِ قَائِلًا: (لَأَنِّي عَارِفٌ أَنَّكُمْ بَعْدَ مَوْتِي تَفْسُدُونَ وَتَزِيغُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَيُصِيبُكُمْ الشَّرُّ فِي آخِرِ الْأَيَّامِ لِأَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ حَتَّى تُغِيظُوهُ بِأَعْمَالِ أَيْدِيكُمْ)^(٢).

وفعلًا، وبمجرد أن مات يوشع وصي موسى أشركوا: (وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبُعْلِيمَ. وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِهِمُ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ وَسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبُعْلَ وَعَشْتَارُوتَ)^(٣).

(١) الكتاب المقدس: سفر التثنية، الإصحاح ٣٢: ٢٦-٢٨.

(٢) الكتاب المقدس: سفر التثنية، الإصحاح ٣٢: ٢٩.

(٣) الكتاب المقدس: سفر القضاة، الإصحاح ٢: ١١-١٣.

وهكذا استمروا طوال تاريخهم الأسود يشركون ثم يعودون عن الشرك تحت ضغط الشدائد التي كانت تحل بهم، ومع توالي إرسال الرسل إليهم وهدايتهم من جديد إلى توحيد الله. بل كانوا أحياناً يبررون شركهم بنسبة الشرك إلى بعض أنبيائهم، كما فعلوا بحق سليمان.

• تكذيب وقتل:

ولما كان يزداد تمردهم، لاسيما بتوجيهات من أحبارهم الفاسدين الطامعين بالرئاسة الدينية وبكنز الذهب والفضة، كانوا يتجهون باتجاهين، الأول: تكذيب الرسل.. والثاني: قتلهم!

اتخذوا هذا الموقف تجاه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فكذبوه، وافترخوا عليه وعلى أمه الطاهرة بأقذع الافتراءات كذباً وبهتاناً.. ثم سعوا إلى قتله.. ولولا تدخل العناية الإلهية لتحقق لهم مرادهم.

• تجربة النبي يحيى:

ومن قبل عيسى بزمان قصير جداً.. مارسوا نفس الدور

مع النبي يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَام. قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (١).

كانت ولادة يحيى عَلَيْهِ السَّلَام بشارَةً كبيرةً لأبيه زكريا عَلَيْهِ السَّلَام، لأنه كان يعيش قلق الأوضاع الرسالية التي يمر بها مجتمعه آنذاك. وهو ما عبّر عنه بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (٢).

وحيث كان لكهنة بني إسرائيل دوراً رئيساً في هذه الانحرافات، والذين عبّر عنهم زكريا عَلَيْهِ السَّلَام بعنوان «الموالي»، لأنّ من معاني هذه الكلمة: «أقارب الرجل من جهة الأب». ومن المعلوم أن الكهانة كانت في ذرية هارون أخي موسى عَلَيْهِمَا السَّلَام، وزكريا منهم.. فقد خافهم زكريا على الرسالة من بعده. خاف من أن يبرز بعض هؤلاء الكهنة المنحرفين، ويسيطروا على الشؤون الدينية للناس بشكل كامل، فيُفسدوا ما أصلحه - هو - والأنبياء على مدى سنوات طويلة.

(١) سورة مريم: ٧.

(٢) مريم: ٥-٦.

ولذا سأل الله أن يهب له ولياً، ولداً ذكراً يكون تقياً طاهراً ترعاه العناية الإلهية كما هو شأن مريم بنت عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(١)، وذلك لكي يقوم بالمسؤولية من بعده، فمهما ارتفع شأن السيدة مريم، فإنها لن تستطيع ولن يُسمح لها بأن تقوم بهذا الدور.

وولد يحيى، الإنسان الطاهر، النقي الروح، الطيب السيرة.. وأوتي النبوة، ونهض بمسؤولياته الصعبة في مواجهة التحديات المختلفة: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(٢).

لقد نهض عيسى عليه السلام للدعوة في الضفة الغربية لنهر الأردن، بينما نهض بها يحيى عليه السلام في الضفة الشرقية، حيث كان طابع ذلك المكان صحراوياً يتسم بالحياة الفطرية البعيدة عن المدنية.

عاش يحيى عليه السلام حياة بسيطة جداً في ملبسه ومأكله

(١) سورة آل عمران: ٣٨.

(٢) سورة مريم: ١٢.



ومشربه ولم يتزوج، ليواجه بذلك المادية المستفحلة في مجتمعه، والتي اعتبرها أساس خطاياهم.

في «قصة الحضارة» للمؤرخ الأمريكي «ول ديورنت» أن الأحبار كانوا يتشددون في تعاليم الطهارة الجسدية وأمثال ذلك، في الوقت الذي أباحوا فيه الربا إشباعاً لنهم الناس.

وتآمرت عليه الأطراف المختلفة.. فقد سجنه الحاكم «هيرود أنتيباس» خوفاً منه وتحت تأثير تحريضات أحبار وكهنة اليهود الفاسدين، ثم قتله بطلب من زوجته المعروفة بفسقها.. وقد قُطع رأسه الشريف، فُدُن في دمشق على ما هو المشهور، بينما دُفن جسده في فلسطين.

• الانتقام الإلهي لاستشهاد يحيى:

وبعد ذلك بسنوات، جاء الانتقام الإلهي من ذلك المجتمع الظالم والفساد.. المجتمع الذي كان ينبغي له أن ينصر هذا النبي الكريم، فإذا به بين خاذل ومتآمر على قتله!

وقد أكد هؤلاء الخاذلون المتآمرون طغيانهم من خلال عدائهم للمسيح عليه السلام أيضاً، وهم الذين كانوا ينتظرون



قدومه، ويُطلقون البشارات بظهوره، ليتحقق لهم وعلى يديه الخلاص، فإذا بهم يقومون بالتآمر عليه مع الرومان، ويحاولون قتله صلباً.. فأنجاه الله.

وهكذا لم يكد النصف الثاني من القرن الميلادي الأول يبدأ حتى انتشرت الفتنة في مجتمع اليهود.

وانقسموا إلى فئتين متقاتلتين، فئة الأغنياء المتحالفة مع الرومان، وفئة الفقراء.. ووقع القتل بين الطرفين، وقُتل وسُبي من اليهود من الفئتين من عام «٦٨ م» إلى «٧٠ م» عشرات الآلاف.

وسقطت القدس بيد الرومان، فأحرقوا هيكل سليمان، واضطر قرابة المليون من اليهود إلى الهجرة من المناطق المختلفة، وتحولوا إلى لقمة سائغة للمجتمعات التي كانت تُبغضهم وتُبغض سلوكياتهم المنفرة، فقتلوا من جديد زرافات ووحداناً.

• الانتقام وفق سنة إلهية:

هذه صورة من صور الانتقام الإلهي، وقد جاءت وفق

السنن والقوانين الإلهية: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١).

فالطاغوت يزداد استكباراً حين يجد أن المجتمع يخذل أنبياءه والمصلحين المقدسين فيه، ولا يهب لنجدهم وخلصهم، بل ويتآمر عليهم ويسلمهم إليه!

إنّ مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يحترمه طاغية أو أن يركن إليه.. بل هو مجتمع لا يستحق إلا أن يُسحق، ويُستضعف، ويُستولى على ممتلكاته ومقدّراته، وأن يُحوّل أفرادُه إلى عبيد عنده.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾^(٢).

• الانتقام الإلهي لاستشهاد الحسين:

وهذا بالدقة ما جرى بعد عاشوراء.. فعن ابن عباس قال: (أوحى الله إلى نبيكم ﷺ: أني قتلت بيحيى بن زكريا

(١) سورة آل عمران: ١٣٧.

(٢) سورة الأنعام: ٦٥.

سبعين ألفاً، وإنني قاتل بابين ابنتك سبعين ألفاً، وسبعين ألفاً^(١). وأورد القرطبي هذا الخبر في تفسير الآية ٧ من سورة الإسراء.

في بحار الأنوار عن علي بن الحسين عليه السلام قال: (خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا وذكر يحيى بن زكريا عليهما السلام. وقال يوماً: من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل)^(٢).

لقد كانت الجريمة الكبرى التي ارتكبت في يوم عاشوراء بحق الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره وأهل بيته مُفْتَحاً لارتكاب المزيد من الجرائم. فقد وجد يزيد أن المجتمع الذي أسلم الحسين وخذله مجتمع لا حرمة له، ومن يسترخص دم الحسين - كيزيد - سيسترخص كل دم آخر! ولذا لم يتردد في محاصرة المدينة المنورة، وإباحتها لجيشه ثلاثة أيام، وإيقاع القتل في أهلها وهتك الأعراض

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، ح ٢٠٧٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٦٥.

ونهب الممتلكات بما يفوق الوصف، ويندي له الجبين، حتى ألزم الناس فيها بالبيعة ليزيد على أنهم عبيدٌ له! ثم توجه جيشه إلى مكة المكرمة التي حوصرت، واستبيحت حرمتها، وقُذفت الكعبة المشرفة بالمنجنيق!

وتوالى الأحداث الدامية بعد ذلك على مدى عقود من الزمن، وامتدت على يد أمثال الحجاج وخالد القسري، وراح فيها عشرات الآلاف من الناس قتلاً في الحروب والفتن والثورات المختلفة.

ولنأخذ العبرة والحذر من سُنن الله ونَقَمَتِهِ، فمن يساهم أو يرضى بما يجري حولنا في بلاد المسلمين من سفك لدماء الأبرياء وانتهاك للحرمان وتدمير للمقدَّرات من أيِّ طرف كان، فلن يكون بعيداً عن الانتقام الإلهي ليدوق بعضاً مما شارك فيه أو رضي به.

